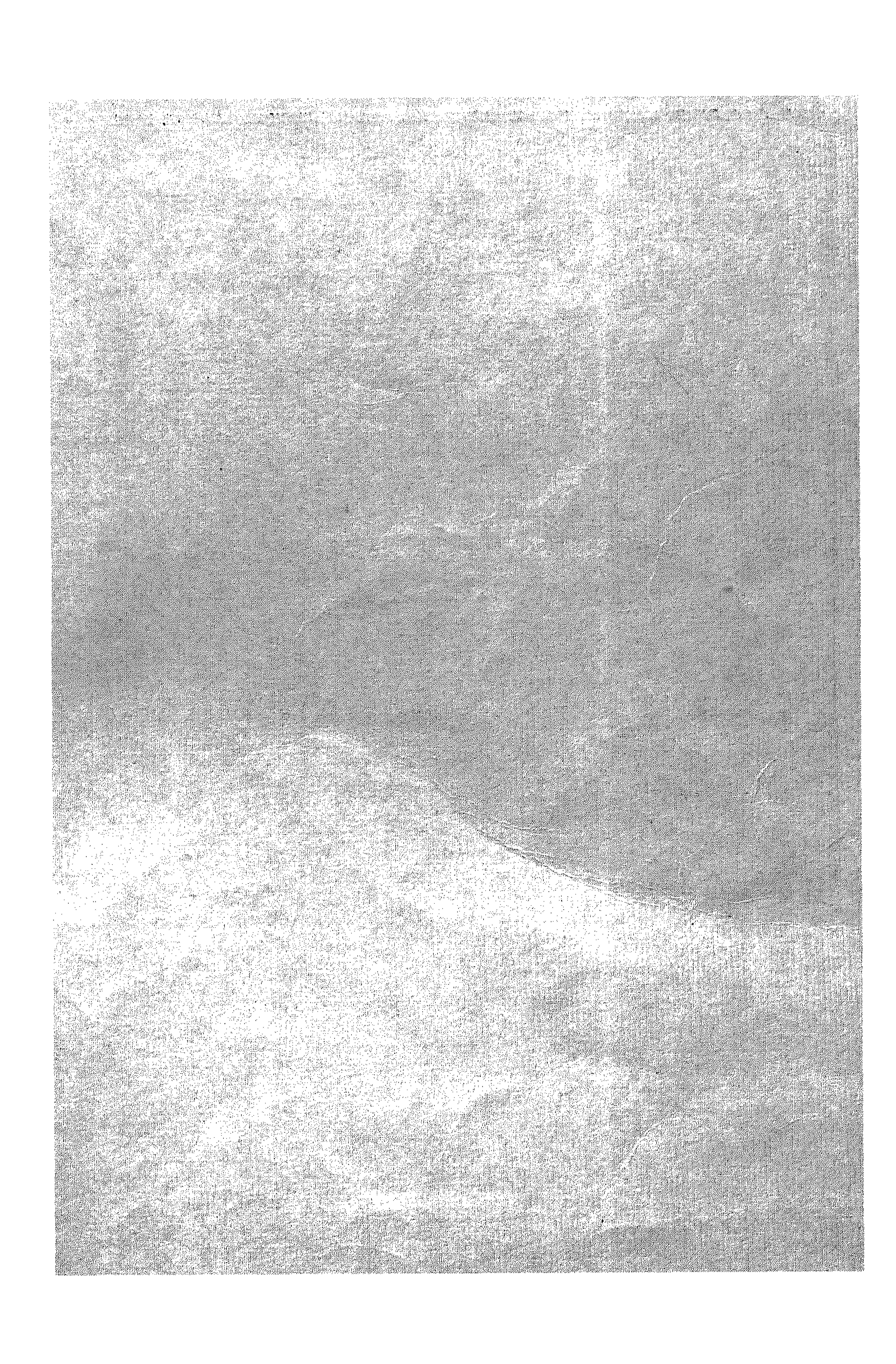
مكتبة التحليل النفسى
٣

سيجمند فرويد

ما فوق مبدأ اللذة

ترجمة
إسحق رمزى

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



مكتبة التحليل النفسي

يشرف على إصدارها

الدكتور إسحق رمزي

٣

سيجمند فرويد

ما فوق مبدأ اللذة

ترجمة

إسحق رمزي

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مقدمة الترجمة

يستلزم العمل على تفهم مصادر السلوك الإنسانى وتفسير مختلف الأشكال التى يبدو فيها ، أن يضع الباحث من الفروض والنظريات ما تهديه إليه المشاهدة العلمية لمظاهر ذلك السلوك فى أحواله المألوفة وغير المألوفة ، وما يؤيده البحث فيما يدور بالنفس من مختلف المشاعر والأحاسيس ، وما يتناوبها من ألوان الأخيلة والأفكار فيدفع بها إلى تلك الألوان المختلفة من التفكير والنشاط فى أحوال الصحة والمرض على السواء .

ولقد حاول الناس على مر العصور أن يقفوا على أسرار النفس وأن يتفهموا ما تنطوى عليه من البواعث التى تظهر آثارها فى رضى المرء عن حياته أو شقاوته بها ، وفى إقباله على العمل والحياة على اختلاف وجوهها وما تعج به من ضروب الكفاح والإنتاج . كما جاهدوا فى سبيل الكشف عما يؤدى إلى ما ينتاب الإنسان من ألوان العلل التى يظهر بعضها على البدن ، ويظهر بعضها الآخر على العقل فيلتاث ويضطرب .

وتاريخ الفكر الإنسانى مفعم بالنظريات التى ذهب إليها بنو البشر منذ أقدم ما عرفت الحضارة ؛ منها ما يرد ألوان التفكير والسلوك فى حالات الصحو والنوم ، والسواء والشذوذ ، إلى الأرواح طيبها وشريرها تؤثر عليه فتدفع به إلى ما يبدو منه للناس من خير أو شر . ولا يزال هذا الرأى أو بقاياه شائعاً حتى اليوم ، فطيراً ساذجاً بين العامة فى كثير من بلاد الشرق بل بلاد الغرب . كما نشاهد مثل هذا الرأى مقنعاً مموهاً تحت أسماء مختلفة تصطنع المصطلحات العلمية الخافية التى تعود أصلا إلى الإيمان بتلك القوى الغامضة التى تسيطر على مقادير بنى البشر ، من هذا ما يقال من أن

جراثيم الوراثة أو عصارات الغدد أو تلافيف المخ هى الأصل الطاغى على سلوك الإنسان فى صحته أو مرضه النفسى .

غير أن كثيراً من المفكرين — حتى فى أكثر العصور جهالة — فطنوا إلى وَهْىِ الإيمان بتلك القوى الغيبية فالتمسوا للسلوك الإنسانى تفسيراً أكثر قرباً من الواقع وأكثر قابلية للتحقيق والبحث . وتواتر خلال التاريخ فيض غامر من النظريات والمذاهب التى عرضت للبحث فى النفس الإنسانية وفى صلتها بالبدن . ونحا بعضها إلى إرجاع ما يدور بالنفس وما يعرض لها إلى أسباب بدنية ، كما نحا كثير منها إلى دراسة السلوك الإنسانى دراسة نفسية خالصة تحفل بها كتب الفلاسفة والأدباء فى مختلف الأزمنة والعصور .

وما من شك أن أحداً من مفكرى العالم فى تاريخه الطويل لم يوفق فى الكشف عن مجاهل النفس الإنسانية فى الصحة والمرض إلى مثل ما وفق إليه سيجمند فرويد (١٨٥٦ — ١٩٣٩) واضع التحليل النفسى . فهو أهم العلماء الذين توفروا على دراسة النفس الإنسانية دراسة علمية ، قضى فيها سنوات يعالج فيها المرضى ويجاهد فى سبيل الكشف عن أعماق النفس وما تنطوى عليه من أخيلة وأفكار ، تؤدى آخر الأمر إلى كثير مما يصدر عن الإنسان من سلوك رفيع أو وضيع ، وما ينصرف إليه فى حياته الاجتماعية أو العلمية أو الفنية ، وما يستمتع به من صحة أو يصيب نفسه من مرض . ولقد وفق فرويد بطريقة التحليل النفسى التى اهتدى إليها ، إلى كشوف رائعة كتب لها أن تغير وجه التفكير الإنسانى من عدة وجوه ، واعترف له حتى غير المتشيعين لمذهبه بأن « أحداً من المفكرين منذ عهد أرسطو لم يوفق فى فهم الطبيعة الإنسانية إلى مثل ما وفق إليه فرويد » .

ولقد قضى سيجمند فرويد ما يقرب من الخمسين عاماً باحثاً دارساً مستقصياً مظاهر النفس الإنسانية مجاهداً فى نشر آرائه والدفاع عنها وداعياً إلى العمل على التحقق منها ، حتى استطاع قبل أن ينتهى أجله أن يظفر باعتراف

العالم كله بفضله ، وداعياً إلى إقامة « التحليل النفسى » صرحاً من صروح العلم الحديث يفيد منه الناس فائدة تظهر نتائجها فى كثير من نواحى الحياة .

وأصبح التحليل النفسى ،أو ما يشتق منه،خير طريقة لعلاج الأمراض النفسية وبعض الأمراض العقلية ، بل لعلاج طائفة من الأمراض البدنية التى تصدر أصلا عن النفس لا عن البدن . هذا إلى أن كشوف المدرسة التحليلية عن دوافع السلوك وحيل التفكير قد أصبحت أهم فصول علم النفس وأخطر جوانب السيكلوجية العلمية المعاصرة . وإلى هذا وذاك تأثر كثير من نواحى الثقافة الإنسانية فى المسائل الاجتماعية والإنتاج الأدبى والفنى بآراء فرويد تأثراً لا حاجة بنا إلى الإطالة فيه أو الإشادة بمقداره ومداه .

* * *

على أن فرويد لم يضع ذلك العلم بين يوم وليلة ، ولم يقف عند رأى جامد يستمسك به ولا يحيد عنه ، بل قضى زمناً طويلا يبحث ويستقصى ويستكمل ما كان يبدو له من نقص فى نظريته ، أو يصحح ما كان يلوح من أوجه الخطأ فيها ، حتى أقام أخيراً هو وأتباعه ذلك الصرح الهائل من الحقائق والنظريات التى تمتلىء بها كتب التحليل النفسى ودورياته .

ولقد كان كل رأى جديد يعلنه فرويد على الناس لا يقابل منهم إلا بالاستنكار والمعارضة والسخرية والتشكك ، غير أن الأمر كان ينتهى المرة بعد المرة إلى هدوء العاصفة ، وإلى تحول المعارضة إلى نقيضها، وإلى قبول حجته الرصينة الهادئة وزيادة تقبل آرائه والاعتراف بنظرته الثاقبة وعبقريته الفذة . ولسنا نعنى بهذا أن كافة ما كان يقول به كان بعيداً عن الخطأ فليس هذا هو الواقع ، فإن فرويد نفسه قد بدّل وغيّر كثيراً من آرائه الأولى ، بل تناول بعضها بالتغيير أكثر من مرة . وعلى الرغم من أنه كان له من الشجاعة ما دفع به إلى الضرب فى آفاق المجهول وليس له من سلاح سوى المعرفة التى اهتدى إليها من بحوثه فى النفس الإنسانية ، فإنه كان ينشر آراءه

فى شىء غير قليل من الإشفاق والتردد والشك كان على النقيض من ذلك القطع والحسم الذى كان يكتب به معارضوه .

وقد كان أهم ما استغرق اهتمام فرويد من الناحية النظرية هو التعرف على الأسس الأولية للسلوك الإنسانى . تلك الأسس الفطرية التى تسبق كل تعلم ، يولد بها الإنسان وتنطوى عليها نفسه فتدفعه إلى كثير مما يصدر عنه من ألوان المشاعر وأشكال التفكير ومظاهر العمل والسلوك . ولم يكن فرويد وحيداً بين علماء النفس فى الاهتمام بذلك الجانب من البحث ، فقد انصرف أكثر العلماء المعاصرين إلى دراسة تلك الدوافع الفطرية عن طريق الملاحظة والنظر والتجريب ، ودار نقاش طويل حاد بينهم عن تعريفها وتحديد مداها وتفنيد أشكالها ، وكثرت المناقشات حول طبيعة هذه الدوافع وأصولها ، واختلفت الأسماء التى أطلقت عليها فسميت بالغرائز ، والميول ، والحاجات ، والحوافز ، والرغبات . لكن الواقع أن أكثر الخلاف كان خلافاً لفظياً ، كما كان أهمه يدور حول عدد هذه الدوافع ومدى تأثيرها على سلوك الكائن الحى .

وأى فهم لنظريات فرويد فى هذه الناحية لا بد أن يبدأ بالوقوف على معنى كلمة الغريزة عنده ، ذلك المعنى الذى حدده فرويد تحديداً واضحاً صريحاً . فهو يقرر أنه ينبغى الاحتفاظ بهذا المصطلح للنزعات الأولية وحدها ، أى تلك النزعات التى لا يمكن إرجاعها إلى ما هو أبسط منها . هذا إلى أن الغريزة عند فرويد تعبر عن قوة نفسية راسخة تصدر من صميم الكائن العضوى وتنبع أصلا من حاجات البدن التى تتأتى عما يجرى فى أعضاء الجسم وأجزائه ، بل فيه كله ، من عمليات بيولوجية لا يستغنى عنها الكائن الحى . هذه الحاجات التى تصدر من التكوين البدنى النفسى للإنسان تؤدى به ، إذا ما ثارت ، إلى حال من التوتر يدفعه إلى تدبير المواقف التى تهيئ له ما يلتمسه من الإشباع وتؤدى إلى التخلص أو التخفف من ذلك التوتر .

ومن ثم كانت فكرة الغريزة ، واستخدام أصحاب التحليل النفسى لها ،

فكرة أساسية لتفسير السلوك ، رغم ما يوجد من بعض الخلاف اليسير على المقصود بها وعلى مدى سيطرتها وتغلغل أصولها . لكن مدار الرأى الغالب هو ما يقول به فرويد نفسه من أن الغريزة هى ذلك الضرب من الطاقة التى تصدر عن التكوين الأساسى للإنسان ، وأنها تنبع أصلا من مقوماته البيولوجية . فهى فكرة ، كما يقول فرويد، تقع متوسطة بين مناطق البدن ومناطق النفس .

ومع هذا كله لم يكن فرويد يعتبر أن بحثه فى الغرائز هو المهمة الأساسية التى أخذ على عاتقه القيام بها فى حياته العلمية التى كانت تهدف إلى تفسير بعض الظاهرات النفسية المعينة التى كانت تحيره وتجتذب انتباهه ، تلك كانت على الأخص الاضطرابات النفسية والأحلام . وكانت دراسته للغرائز أول الأمر دراسة جانبية اعترضت أبحاثه ثم أخذت شيئاً فشيئاً تستغرق انتباهه واهتمامه . ورغم أن أبحاثه الأولى شملت كثيراً من الدراسات فى طبيعة الغرائز وأشكال نشاطها ، وخاصة ما يتصل منها بالغريزة الجنسية ، إلا أنه لم يشرع فى وضع نظرية محدودة المعالم عن تلك المسائل إلا بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً من البحث المتصل . ومن ثم لم تكن آراؤه آراء سريعة فجة ، ولا كانت آراء تأملية سابقة للملاحظة والاختبار ؛ بل كانت قائمة على خبرة واسعة متصلة عميقة مباشرة ، هيأتها له طبيعة عمله فى علاج الأمراض النفسية كما هيأتها له دراساته الواسعة لمختلف نواحى المعرفة الإنسانية فى علوم البيولوجيا والطب والاجتماع والأجناس .

إلى جانب هذا كان مما يجتذب انتباه فرويد باستمرار وجود عامل الصراع فى حياة الإنسان . حسبنا أن نرى إلى العالم الذى نعيش فيه لحظات ، حتى نرى كثيراً من مظاهر العراك والكفاح فى كافة النواحى . لكن فرويد لم يقتصر على تلك المشاهد الخارجية بل تتبع أصول هذا النزاع فى أعماق النفس الإنسانية واهتدى إلى وجود الصراع فى صميم التكوين العقلى للإنسان . وقرر أن أهم خصائص العقل هى الصراع الدائم الذى

ينطوى عليه ، وخاصة فى طبقاته العميقة التى أطلق عليها اسم اللاشعور . وارتأى أن الحياة فى صميمها ليست نزاعاً بين الفرد والفرد فحسب ، أو بين الأمة والأمة فحسب ، بل بين بعض الإنسان وبعضه الآخر ، بين جانب من نفسه والجانب الآخر . ويمكن أن يعتبر حديثه عن طبيعة هذا النزاع كأنه البحث الذى قامت على أساسه نظريته فى التحليل النفسى ؛ كما يمكن أن نؤكد أنه بالرغم من تحوّل آرائه وتطورها فقد بقيت نظريته من مطالعها حتى نهايتها رأياً اثنينيًّا يقوم على التسليم بوجود طرفين أو جانبين يتنازعان نفس الإنسان .

* * *

ولقد اكتفى فرويد فى الخمس عشرة أو العشرين السنة الأولى من أبحاثه بتصنيف عريض بسيط للميول الفطرية عند الإنسان . فاصطنع المقابلة المأثورة التى قال بها الشاعر الألمانى « شيلر » ألا وهى المقابلة بين الجوع والحب ، تلك المقابلة التى تذكرنا بما مر مثلها فى تفكير حجة الإسلام الغزالى عن شهوة البطن وشهوة الفرج ، فقسم فرويد الدوافع النفسية للإنسان إلى مجموعتين : إحداهما هى المجموعة التى تهدف إلى الاحتفاظ ببقاء الفرد ، والثانية هى المجموعة التى تهدف إلى بقاء النوع . وهذا تقسيم من الواضح أنه يقوم على أسس بيولوجية . وأطلق على الأولى اسم غرائز « الأنا » وعلى الثانية اسم الغرائز الجنسية . وقال إن هذا ليس سوى فرض علمى نافع يمكن أن يبدأ به البحث ، سعياً وراء تنظيم المشاهدات والوقائع التى يقوم على جمعها . ورأى أن الآلام النفسية تتأتى من الصراع الذى يقوم بين هاتين الناحيتين من الدوافع ، بين غرائز « الأنا » الطليقة وبين الغرائز الجنسية المكبوتة ، وقد أيدت كافة الأبحاث التى أجريت بعد ذلك صحة ما ذهب إليه فرويد .

واستغرق البحث فى مجموعة الغرائز الجنسية اهتمام فرويد سنوات ، وخاصة

ما كان يختفى منها فى أعماق النفس نتيجة للكبت الذى تتطلبه التربية والدين والحضارة ، تلك الغرائز التى لم يكن يعرف عنها حتى ذلك العهد سوى النزر اليسير . وكانت أهم كشوفه وجود الميول الجنسية عند الطفل ، ورغم أنه استعمل لفظ « الجنسى » على منوال أرحب من الاستعمال المألوف ، ووصف بها كثيراً من الرغبات وألوان النشاط التى لم يألف الناس من قبل نسبتها إلى الجنس ، إلا أنه لم يقصد بذلك اللفظ شيئاً جديداً ولم يستعمله استعمالا يخالف الاستعمال الشائع فى كثير أو قليل .

وكان أول ما فاجأ به الناس هو تقريره أن الرغبات الجنسية ، كما يقصد الناس جميعاً بهذا اللفظ ، تثور بنفس الطفل وتوجد بها وجوداً لا شك فيه منذ مطالع الحياة . وقد اعتمد فى إثبات هذا الرأى على كثير من البراهين من الحالات المرضية وغير المرضية ، ومن دراسة طبائع الشعوب وعاداتها ، لسنا اليوم بمجال تفصيله فكثرة الناس تسلم به وتعترف بقبوله بعد أن أنكرته من قبل . ومجمل هذا الرأى أن الغريزة الجنسية غريزة معقدة كثيرة العناصر تمر بعدة مراحل مختلفة حتى تصل إلى النضج الذى تتميز به عند الإنسان البالغ . لكنها تبدأ من عناصر محدودة فى الطفولة الأولى حين يلتمس الطفل اللذة فى مناطق جسمه المختلفة قبل أن يصل إلى المرحلة التى تمتزج فيها هذه العناصر جميعاً . ووجد أن أهم مناطق الجسم التى تصدر عنها الغريزة هى الفم والمخارج ثم الأعضاء التناسلية . لكن الغريزة الجنسية لا تكون أول الأمر وحدة متكاملة ، بل تتكون من عناصر متفرقة تصدر عن عدة مصادر عضوية ، كل منها يعمل مستقلا عن الآخر ، ويسعى سعياً أعمى وراء إشباع اللذة العضوية الساذجة ، وهى تؤدى إلى ازدياد التوتر فى تلك الأعضاء توتراً يستلزم التخفف ويتطلب الإشباع ، ولا يتأتى لها أن تنسجم فى وحدة ناضجة واحدة تقوم عليها وظيفة التناسل إلا عند البلوغ .

وفى ذلك العهد وضع فرويد فرضه عن «اللبيدو» فقال إنه الطاقة البيولوجية

التى تظهر فى الميول الجنسية ، وهذه بدورها ليست سوى كميات من تلك الطاقة يمكن انتقالها من منطقة فى الجسم إلى منطقة أخرى ، وهى قابلة للتحول والظهور والتجمع والتخلف ، قبل أن ينصرف أغلبها ويندمج فى كل واحد ويسعى نحو هدف أو أهداف فى الفرد نفسه أو خارجه .

وتكون هذه الغرائز الجنسية أول الأمر مختلطة مع غرائز الأنا (أى غرائز المحافظة على بقاء الفرد) فالجوع مثلا يختلط بلذة الفم فى مصدره وهدفه وموضوعه ولا يفترق هذا عن ذاك إلا بعد ذلك بمراحل ؛ فالطفل يمص الثدى قبل أن يمص أصبعه ، ويمص هذين قبل أن يبدأ فى استخدام شفتيه للتقبيل بوقت طويل .

وكان مما نشره فرويد عن طبيعة الميول الفطرية مقال عنوانه « الغرائز وتقلباتها » وفيه أشار إلى تفرقة نافعة بين « هدف » الغريزة ، أى غاية الإشباع التى تسعى نحوها ، وبين «موضوع» الغريزة ، أى الوسيلة التى تستطيع بها أن تحصل على ذلك الإشباع ، سواء كانت تلك الوسيلة جسم صاحبها أم جسم غيره . أما « مصدر » الغريزة فقد قرر أنه يعود أصلا إلى البدن ، لأنه ارتأى أن الدوافع الفطرية تقوم على الأسس الفسيولوجية الكيمياوية التى تجرى فى جسم الإنسان. ومن ثم كان رأيه عن الغريزة ليس رأياً سيكولوجيًّا خالصاً بل رأياً سيكولوجيًّا فسيولوجيًّا . كما ذهب إلى أن النتائج النفسية التى تؤدى إليها الغرائز المختلفة تعود إلى اختلاف مصادرها البدنية . وقد استطاع فيما يختص بالغريزة الجنسية أن يبين بالتفصيل مناطق الجسم المختلفة التى تصدر عنها عناصرها المختلفة ، وأن يربط بين هذه العناصر وما يترتب عليها من تكوين الخلق والشخصية . وقد كان من أعجب الكشوف مثلا الوقوف على الصلة بين طريقة الرضاعة والفطام ، أو التدريب على ضبط المخارج وبين الخصائص النفسية للفرد بعد ذلك ، فيما يتصل بإقباله على الحياة أو تشاؤمه منها وحرصه عليها أو تبذيره فيها .

* * *

ورغم أن بحوث فرويد لذلك العهد كانت تدور حول الغريزة الجنسية إلا أنه لم يغفل أن هناك ناحية أخرى فى النفس تنصرف إلى المحافظة على الذات والكفاح فى سبيل الحياة ، فأقام مقابل الغرائز الجنسية مجموعة أخرى من الغرائز هى غرائز الأنا . وقرر أن الأساس فى الأمراض النفسية هو الصراع الذى يقوم بين الميول الجنسية وبين ما تفرضه الأنا . غير أن سيكولوجية الأنا كانت حينذاك لا تزال خافية على الأفهام ، وكانت طبيعة غرائزها شديدة التعقيد ولم يهيأ له وقتها ، لشدة اهتمامه بإتمام البحث فى الميول الشهوانية ، أن يلقى عليها حينذاك ضوءاً يكشف عن طبيعتها . لهذا توفر فى تلك الفترة على دراسة كيفية تصرف الفرد بإزاء الغريزة بالضبط أو الاستبدال أو الإعلاء وفق مقتضيات العالم الخارجى والأوضاع الاجتماعية ؛ واهتدى إلى الحيل النفسية التى شاعت بعد ذلك على ألسنة الخاصة ثم العامة من كبت وقلب وتنفيس ؛ ووصل من دراساته هذه إلى حقائق عجيبة عن تحولات الغريزة مثل تحول الحب إلى الكراهية ، أو مثل تحول الطاقة الشهوانية الحبيسة — الليبدو — إلى جزع أو قلق ، كما لمس الصلة بين الغرائز الجنسية وغرائز المحافظة على البقاء .

ثم تقدمت أبحاث فرويد خطوة ثانية عند نشره بحثاً مشهوراً بعنوان « النرجسية » كان أصدق وصف له ، ما قاله « أرنست جونز » ، إذ قال إنه كان بحثاً مزعجاً . ويعود الفضل فى وضع مصطلح النرجسية إلى العلامة الإنجليزى المشهور «هافلوك أليس» الذى توفر بعيداً عن فرويد على دراسة الميول الجنسية ، ونشر عنها ، فيما نشر ، موسوعة تقع فى ستة مجلدات ضخمة صارت بعد ذلك مرجعاً لرجال الطب وعلوم النفس والاجتماع فى هذه الناحية . ولقد وصف « أليس » حب الذات وصفاً مفصلا وأطلق عليه اسم النرجسية إشارة إلى الأسطورة الإغريقية المعروفة . وهناك كثير من أمثلة النرجسية فى هوس المجنون ،

وفى اهتمام المصاب بالهجاس ببدنه ، ومن أمثلتها ما يشاهد فى حياة الأطفال ، والعجائز ، أو المصابين بعلل بدنية خطيرة ؛ إذ يبدو فى كافة هذه النواحى الفرق بين حب الذات وحب الغير ، والصلة بينهما ؛ فكلما زاد حب المرء لنفسه قل حبه لغيره والعكس بالعكس . على أساس هذه الملاحظة قرر فرويد أن اللبيدو يتجمع كله فى الذات ، وأن حب الذات هو مبدأ كل أنواع الحب الأخرى . فإذا انصرف هذا اللبيدو إلى الخارج قلنا عنه إنه حب لموضوع ، أى حب لموضوعات أخرى غير الذات . لكن هذا الحب الخارجى يمكن أن يتراجع إلى الذات مرة أخرى كما يقع فى أحوال الإصابة بالمرض أو عقب الإصابة فى حادثة خطيرة ، أو عند تقدم العمر وما إلى ذلك ، حيث يزيد اهتمام المرء بنفسه وتفرغه للتفكير فيها والجزع عليها .

لكن هذا الرأى الجديد الذى أتى به فرويد فى ذلك العهد ، وأيده بكثير من المشاهدات التى لا يمكن إنكارها كان مزعجاً لأتباعه كما أسلفنا ، لأنه حين قال إن الذات نفسها محملة باللبيدو ، فكأنه قال إن غرائز المحافظة على الذات لم تكن سوى جانب من الغريزة الجنسية . ولاح كأن من نقدوا فرويد كانوا على صواب حين زعموا أن ليس لديه سوى ميل طاغ واحد هو الميل الجنسى . لكنه كان يرد عليهم بأن نظريته تقوم على الصراع النفسى وأن الميول الجنسية ليست سوى النصف أو ما يقارب النصف من فطرة الإنسان . على أنه بدا – بعد مقاله عن النرجسية – كأنه وقع فى أيدى معارضيه ، وبدا كأنهم كانوا على حق حين نسبوا إليه أن الجنس عنده كل شىء وأهم شىء ، ولاح كأنه قد أنسى ما ذكره عن أهمية الصراع فى النفس ، ذلك الصراع الذى أقام عليه تفسير الأمراض النفسية .

ثارت كل تلك المشاكل تواجه المحللين ويضيق غيرهم من العلماء عليهم الخناق فى سبيل الإجابة عليها ، ولاح كأن فرويد قد وهنت منه الحجة وأنه قد أنكر الاثنينية التى قال بها من أول الأمر ولم يصل أخيراً إلا إلى الدعوة

إلى فكرة واحدة هى فكرة الجنس يفسر به كل شيء ويدعو إلى أنها كل شيء . على أن النقد كان متجنيا ، فإن فرويد — رغم هذا كله — كان حازماً فى استمساكه بفكرة الصراع ، وبوجود قطبين فى النفس يتنازعانها ، هما الليبدو وما هو غير الليبدو ، هما الميول الجنسية وميول المحافظة على البقاء . غير أنه كان لزاماً عليه أن يشرح موقفه فى جلاء ، وأن يبين رأيه فى وضوح . واعتكف فرويد صامتاً عدة سنوات أخرى وتوفر على البحث كى يستكمل مذهبه ويدافع عن رأيه ضد من أساء فهمه .

* * *

وإذا به يخرج على الناس فى عام ١٩١٤ بكتاب عويص لحل هذه المشكلة بعنوان « ما فوق مبدأ اللذة » . وفيه طلع على الناس بحل عجيب للمشكلة التى طال تفكيره فيها . وقد وصل إلى هذا الحل عن طريق التفكير المجرد المتصل على المنوال الآتى :

حاول أن يرى ما إذا كانت كافة العمليات النفسية تخضع لمبدأ اللذة والألم ، وأن يعرف ما هى الغاية والوظيفة الأساسية لهذا المبدأ . فأجاب عن السؤال الأول بالنفى ، لأن كثيراً من الدراسات على الأحلام وعلى لعب الأطفال وسلوك المرضى أثناء العلاج بالتحليل دفعته إلى القول بوجود مبدأ آخر تنتظم وفقه العمليات النفسية أطلق عليه اسم « إجبار التكرار » ؛ وهو مبدأ أكثر تغلغلا وقدماً فى النفس الإنسانية ، يفرض عليها أن تكرر الخبرات والمواقف القديمة دون نظر إلى ما تؤدى إليه من نفع ، بينما تقوم وظيفة مبدأ اللذة والألم على محاولة خفض التوتر النفسى إلى أقل درجة ممكنة .

ويشترك المبدآن فى أنهما يلتزمان المحافظة ، إذ أن كلا منهما يقاوم أى تغيير للقديم ويعمل على مناهضة العوامل الجديدة التى تقابل الكائن الحى . فمبدأ اللذة والألم يجاهد لخفض التوتر الذى تبعثه التغيرات الخارجية بينما إجبار التكرار يحاول أن يعود بالكائن الحى إلى أحواله السابقة . وهنا خطرت فى

ذهن فرويد فكرة جديدة هى أن أهم خاصة للغرائز هى الميل إلى المحافظة والعودة بالكائن الحى إلى أحواله السابقة ، وضرب مثلا لذلك بهجرة بعض الطيور والأسماك هجرة موسمية إلى أمكنة كانت تنفع الهجرة إليها فى عصور غابرة بينما ليس هناك ما يدعو إليها اليوم .

وكان فرويد مفكراً يتميز بالدقة والجرأة ، وإذا به فى هذه النقطة لا يتردد فى تتبع الفرض الذى وضعه إلى نهايته ، وإذا به يقول إنه إذا كانت الغرائز تهدف إلى العودة بالكائن الحى إلى أحواله السابقة فلا بد أن فى الإنسان نزعة تهدف إلى العودة به إلى الحالة السابقة لكل الأحوال ، ألا وهى حالة المادة الجامدة ؛ أى أن الموت هو غاية كل كائن حى ، والحياة تؤدى آخر الأمر إلى الموت وتسعى إليه ، والكائن الحى يسعى حثيثاً نحو السكون ، ذلك السكون الكامل الذى ينتهى إليه إذا ما وصل إلى حالة المادة الجامدة . وربط هذا بعمليات الهدم والبناء فى الجسم وذهب إلى أن عملية الهدم هى التى تقرر مصير الكائن آخر الأمر .

ثم رأى فرويد أن هذه الأقوال لا يمكن أن تصدُق على كل الغرائز وعلى الغريزة التناسلية على الأخص ؛ لأن هذه تعمل على خلق الحياة الجديدة ، وهى تصل إلى هذا الهدف بالجمع بين خليتين ينتج من اتحادهما كائن جديد ؛ لأن وظيفتها الربط والجمع والبناء . وهنا وحد فرويد بين اللبيدو وبين إيروس — رب الحب عند الشعراء والفلاسفة — الذى يعمل على البناء وعلى ابتعاث الحياة بالتأليف بين عناصرها .

وأدى هذا إلى أن يقرر فرويد الثنائية التى قال بها منذ أول الأمر فى النفس بوجود مجموعتين من الغرائز هما غرائز الحياة وغرائز الموت ، أو إيروس وثاناطوس ، إذا أردنا استخدام المصطلحات الإغريقية . ولكى نوجز ما أسلفنا يمكن أن نتتبع تطور تفكير فرويد عن ثنائية الغرائز فى الخطوات الثلاث الآتية : الأولى المقابلة بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية ، والثانية المقابلة بين

حب الذات وحب الغير ، والثالثة المقابلة بين غرائز الموت وغرائز الحياة .

لاح أن المسألة قد وصلت إلى حل عند هذا الحد . لكن المشكلة ما زالت قائمة : فكيف يمكن أن نقسم الظاهرات النفسية وفق هذه المقابلة وأن ننسب هذه العملية إلى واحدة من تلك الغرائز أو ما يقابلها ؟ ليس من شك أن غرائز الحياة والحب وما تدفع إليه واضحة جلية للعيان ؛ لكن ما هى العمليات النفسية التى يمكن نسبتها إلى غريزة الموت . حاول فرويد أن يحل المسألة هنا بقوله وقتاً ما إن غريزة الموت صامتة ساكنة لا تظهر نشاطها بل تعمل خافية فى أعماق الكائن . لكن هذه الإجابة لم تكن نافعة تلقى أى ضوء على التكوين النفسى أو على مظاهر نشاطه .

وهنا خطر لفرويد أن يجمع بين ناحيتين من تفكيره وبحوثه : بين البحث النظرى الذى أدى به إلى القول بوجود غريزة الموت ، وبين بحوثه العلاجية التى أدت به إلى التحقق من وجود جانب كبير من الميل إلى القسوة فى نفس الإنسان ، هذه القسوة التى إذا لم تجد لها منصرفاً فى العالم الخارجى ارتدت إلى صاحبها تلهبه بسياط التعذيب الذى نشاهده فى كثير من الأحوال المرضية . يكفى لهذا أن نذكر مثلا واحداً أثبتته الدراسات المرضية هو أن الانتحار يكون نتيجة لبعض ميول القتل والكراهية التى لم يستطع صاحبها — لأى سبب خاص به أو بالعالم الخارجى — أن ينفذها ضد غيره فارتدت إلى نحره يحاول أن يقتل نفسه بدلا من رغبته الأصيلة فى قتل غيره .

ولقد لاقت نظرية فرويد عن غريزة الموت كثيراً من النقد حتى بين المحللين أنفسهم ، وأنكر كثير منهم التسليم بوجود نزعة أساسية فى نفس الإنسان تنتهى به إلى القضاء على نفسه وتناقض لبّ الحياة وحب البقاء . ومهما يكن من أمر المبررات النظرية التى اعتمد عليها فرويد للقول بتلك النزعة ، فإنه لم يكن وحده أول من تحدث عنها أو فرض وجودها بل هناك من العلماء والمفكرين من تعرضوا بكثير من التفصيل لدراسة الميل إلى

الثبات والسكون عند الكائن الحى سواء من الناحية الفسيولوجية أو من الناحية العقلية النفسية . ولا يسمح لنا المقام هنا سوى أن نشير إلى أقوال سبنسر وفشنر وبتسهوك عن مبدأ الثبات ، أو الحقائق التى اهتدى إليها باستير وكانون عن البيئة الداخلية لخلايا الجسم وتوازن العناصر والإفرازات المختلفة فيه . وإذا كان رأى فرويد يتميز بالجدة والغرابة فى آن واحد ، فليس من شك فى أن هذا يعود إلى أنه رغم تأثره بغيره من المفكرين ، وخاصة فى النواحى البيولوجية ، كان أول من حاول أن يكشف عما يوازى تلك الحقائق البدنية فى المجال النفسى وفيما ينطوى عليه العقل من ميول ومشاعر .

ومهما يكن من إنكار بعض المحللين لما ذهب إليه فرويد من القول بوجود ميل أصيل فى النفس إلى الفناء ، ومهما يكن من عسر فى تتبع الأسانيد التى يعتمد عليها فى تأييد رأيه ، فليس من شك أن أحداً من الناس ، محللا أو غير محلل ، لا يستطيع أن ينكر منه اهتمامه بتبيان جانب الكراهية ، والقسوة ، والعدوان ، ومحبة الإيذاء ، والتدمير التى تنطوى عليها النفس الإنسانية . فهو يقرر أن « النزعة إلى العدوان استعداد فطرى غريزى قائم بذاته فى نفس الإنسان » .

ورغم هذا فقد لاقى هذا الرأى اليسير الواضح الذى قال به كثيراً من الاعتراض الذى وجّهه النقاد إلى فرويد ، وتحوّل تجريحهم له إلى هجوم حاد ، وأنكروا عليه أن كشف فى نفس الإنسان من الشر ما يود الناس أن ينكروه ، وكان نقدهم إياه فى هذه الناحية حاداً ، بل أكثر حدة من نقدهم إياه حين كان يبصرهم بما تنطوى عليه نفوسهم من الميول الجنسية . قال بعضهم إن المعقول هو أن الإنسان إذا غضب واعتدى فهو إنما يندفع إلى هذا الفعل لأن أمراً قد هدد أمنه ولأن سلامته لاحت مهددة بالخطر ، ومن ثم لا يكون عدوانه إلا فى سبيل الدفاع عن النفس ، يبعث إليه ويمليه حب البقاء والاستمساك بالحياة . غير أن هذه الحجة فى الواقع إنما هى حجة واهية

ضعيفة، رغم ما يبدو فيها من الوجاهة ورجاحة الرأى . ذلك لأن هناك كثيرا من مظاهر العدوان الذى نشاهده قاسياً شديداً ، سواء صدر عن الأفراد أو الجماعات ، وهو عدوان لا يمكن أن نجد له مثيراً يبرره ، ولا يوجد له ما يفسره إلا أن الإنسان فى سبيل الإبقاء على حياته والحصول على ما يبغى فيها ، لا بد أن يعمل على تحطيم العقبات التى تواجهه والتغلب على ما يقف دون وصوله إلى الأهداف التى يتطلع إليها .

هذا العدوان نشاهده من الرضيع حين يعمل أسنانه فى الثدى ؛ كما نشاهده بين جماعات الصغار التى لا تتورع أحياناً فى إيذائها ، الذى توجهه إلى بعض أفرادها أو إلى بعض الحيوان ، عن التشويه والقتل ؛ كما نشاهده فى الكراهية الشديدة والغيرة الحادة التى تبدو حتى بين الإخوة — تلك هى المشاهدات التى لا يمكن تفسيرها إلا بأن طبيعة الحياة نفسها تستلزم أن يكون الإنسان معتدياً ، رغم أن هذا الميل إلى العدوان تعمل على كبحه وتوجيه قياده عوامل التربية المنزلية والمدرسية ، كما تعمل على تهذيبه وإعلائه عوامل الدين والحضارة .

ولقد انصرف كثيرون من المحللين ، وعلى الأخص « ميلانى كلاين » ومن يعاونونها من رجال التحليل النفسى فى إنجلترا ، إلى دراسة العدوان وما يترتب عليه فى الأطفال وفى المصابين بالأمراض العقلية ، واستطاعوا الاهتداء إلى كثير من العمليات النفسية التى تنتج عنه وتتصل به فى حياة الأسوياء والمرضى من الناس على السواء .

ورغم هذا فهناك اعتراض آخر على القول بفطرية العدوان فى النفس الإنسانية أغلب من يقول به هم المشتغلون بعلم الاجتماع وعلم الأجناس . هم يسلمون بأن العدوان كثيراً ما يطغى ويظهر فى سلوك الناس طغياناً قد يصل إلى حد يسىء فيه المرء إلى نفسه ويؤذى ذاته ، غير أنهم يرون هذا كله نتيجة لظروف البيئة التى ينشأ فيها وعوامل الحضارة التى يتأثر بها . وهم

يذهبون إلى أن كل العدوان يرجع إلى التعجيز والإحباط والعوائق الخارجية . غير أن أصحاب هذا الرأى فى الواقع بقولهم هذا يتجاهلون تماماً لب المسألة ، ولا يحيرون جواباً إذا هم سئلوا عن مصدر الطاقة العدوانية التى تنطلق نتيجة لوجود عوامل الإعاقة والتعجيز والإحباط .

ومهما يكن من أمر هذه الاعتراضات ، فليس من شك أن البحث فى أسباب العدوان ومظاهره فى حياة الأفراد والجماعات ، وما يؤدى إليه من أشكال الصراع فى نفس الفرد وفى علاقاته بغيره ، هو من أهم ما ينبغى أن تنصرف إليه البحوث السيكلوجية . ولقد كان ولا يزال من أهم النواحى التى يتوفر على دراستها أصحاب التحليل النفسى منذ أن مهد سيجمند فرويد السبيل إلى ذلك بما نشر عنها من آراء فى هذا الكتاب .

* * *

وقد يتبين مما تقدم ما قصدنا إليه من ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية . ذلك أنه يصحح الفهم الأعور الخاطئ لنظريات التحليل النفسى ، ويبيّن فى وضوح جانباً هامًّا من وجوه النظر التى يقول بها . وهو إلى جانب هذا مثل قوى رائع للتفكير العلمى الجامع ، ولما ينبغى أن يلتزمه الباحث فى النفس الإنسانية من تؤدة وتحقيق وتواضع فى سبيل الوصول إلى تفسير ما يشدهه من ظاهرات السلوك الإنسانى . وإذا لم نكن نتطلع أن يكون كافة المشتغلين بالعلوم النفسية فى مثل قامة فرويد ، فلعل المتعجلين منهم يتخذون فيما يبدو منه فى هذا الكتاب من إلمام بعلوم الحياة والتشريح والطب والاجتماع والفلسفة والأدب — حتى بعض العربىّ منه وهو الطبيب الألمانى فى أواسط أوربا — ومن التزام للأناة وأصول الملاحظة والتفكير العلمى مثلا يعملون على التشبه به فى إعداد أنفسهم ، وفيما يقومون به من بحث أو يعتنقون من آراء قد يخالفونه فيها أو يتفقون وإياه .

وأغلب الظن أن القارئ سوف يلقى عنتاً قد يثقل عليه لأول قراءة فى

هذا الكتاب . فالحق أنه كتاب صعب عويص ، بل لعله أغمض وأعوص ما نشره فرويد من كتب كثيرة . وقد تعود صعوبته إلى ما يحويه من فكرة طريفة غير مألوفة ، ولما يلجأ إليه فى سبيل تأييدها من غوص فى كثير من نواحى العلوم والمعارف الإنسانية . لكن الواقع أن المرء لو عاود قراءته فى إمعان وتؤدة ، واستعان على ذلك بما ينبغى معرفته من علوم النفس والحياة لاستطاع أن يجد فى صفحاته كثيراً من المتعة العقلية وأن يقف على ألوان طريفة من التفكير العلمى الرصين الذى يصحح كثيراً مما ألف الناس أن يفهموه عن التحليل النفسى ونظرياته .

ولقد حاولنا فى الترجمة أن ننقل عبارات المؤلف فى أكثر ما استطعنا من دقة ، وتوخينا فى ذلك أن نؤدى ما ورد فى التراجم الإنجليزية والفرنسية أداء أميناً ، دون أن نلجأ إلى أية توطئة أو استطراد قد يتلف الأصل . ورغم امتلاء الكتاب بكثير من المصطلحات الفنية وأسماء الأعلام إلا أنا قد اقتصرنا على شرح ما يلزم منها ، لمتابعة المعنى ، فى بعض الهوامش المرقومة بين أقواس مربعة كى نفرق بينها وبين هوامش الكتاب الأصلية .

إسحق رمزى

دكتور فى علم النفس من جامعة لندن
عضو الجمعية البريطانية للتحليل النفسى

القاهرة نوفمبر ١٩٥٢



الفصل الأول

من المسلّم به فى نظريات التحليل النفسى أن سير العمليات النفسية ينتظم انتظاماً آلياً وفق « مبدأ اللذة » . ونحن نذهب فى عبارة أخرى ، إلى أن ما تبدأ منه أية عملية نفسية ، مهما اختلفت الظروف ، إنما هى حال من التوتر الكريه المؤلم ؛ ومن ثم تتخذ تلك العملية لنفسها سبيلا يؤدى آخر الأمر إلى نقص هذا التوتر والتخفف منه ، أى إلى تجنب « عدم اللذة » والحصول على اللذة . ويعنى هذا الأسلوب فى النظر إلى العمليات النفسية التى نقوم بدراستها أننا نستخدم وجهة النظر « الاقتصادية » ؛ ونرى أن وصف العمليات النفسية من الناحية « الاقتصادية » ، إلى جانب وصفها من الناحيتين « المكانية » و « الديناميكية » ، لهو أكمل وصف نستطيع أن نقدمه الآن . ونذهب إلى أنه يستحق أن ندعوه وصفاً « ميتاسيكلوجياً »[1].

ونحن حين نقول بأهمية مبدأ اللذة لا نحفل بالوقوف على مدى اقترابنا من أو على مقدار اتخاذنا لأى مذهب فلسفى ورد الحديث عنه فى تاريخ الفكر

---

(١) يقصد بـ «الميتاسيكولوجية» (أى ما بعد علم النفس)، فى التحليل النفسى دراسة خصائص اللاشعور ، أو بعبارة أخرى « سيكولوجية الأعماق» التى تهدف إلى دراسة العمليات النفسية من نواح ثلاث : الأولى دراسة القوى الدافعة والميول الغريزية التى تنطوى عليها النفس وهذه هى الناحية الديناميكية ؛ والثانية دراستها من حيث « المكان » أو الجانب الذى توجد به فى النفس وهذه هى الدراسة المكانية أو الطبوغرافية ؛ والثالثة هى دراستها من حيث الوظيفة أى فيما يتصل بالدور الذى تقوم به خاصاً بكمية التوتر الذى تطيقه النفس أو الإشباع الذى تسعى إليه وهذه هى الناحية الكمية أو الاقتصادية (المترجم) .

الإنسانى . ذلك لأننا لم نصل إلى القول بمثل هذه الفروض النظرية إلا خلال ما كنا نحاوله وسعياً وراء وصف الوقائع التى كانت تقع تحت أنظارنا يوماً بعد يوم ، وما كنا نحاوله فى سبيل تفسيرها وشرح فحواها . فليست الأسبقية والإبداع ، أو الأصالة والتجديد من الأهداف التى نجرى وراءها من اشتغالنا بالتحليل النفسى ؛ بل إن الأسباب التى أدت بنا إلى القول بمبدأ اللذه لتبلغ من الجلاء والوضوح حدًّا ، لا يكاد أن يتأتى معه إغفالها أو عدم الاهتمام بها . ورغم هذا فإننا من الناحية الأخرى لن نتردد عن الاعتراف بالفضل لأية نظرية فلسفية أو سيكلوجية يمكن أن تفسر لنا تفسيراً دقيقاً معنى مشاعر اللذة أو « عدم اللذة » التى تتحكم فى الإنسان ويبلغ أثرها عليه كل مبلغ . لكنه مما يؤسف له ، أنه ليس هناك أية نظرية تجدى علينا فى هذا السبيل . ذلك لأن هذه الناحية من الحياة النفسية من أشد النواحى غموضاً وأكثرها استعصاء على البحث والفهم ؛ ولما كان من المحال أن نتجنب التعرض لذلك الجانب من النفس ، فإنه يلوح لى أن خير ما يمكن أن نفعله فى هذا الشأن هو أن نضع فرضاً نلتزم فيه أكثر ما يمكن التزامه من الرحابة والمرونة ، كى يلقى بعض الضوء على ما نحن بصدده . وارتأينا أن نبحث فى اللذة وعدم اللذة من ناحية كمية الاستثارة أو قدر الطاقة (الحرة — غير المقيدة) التى توجد بالنفس فأدى بنا هذا إلى أن وجدنا أن عدم اللذة يلازم زيادة هذه الطاقة أو تلك الكمية ، وأن اللذة تلازم نقصانها . ولسنا نذهب من هذا إلى القول بارتباط ساذج بين شدة مشاعر اللذة وعدمها وبين التغيرات التى تلازمها فى شدة الاستثارة ، كما أننا على ضوء التجارب الفسيولوجية السيكولوجية ، أبعد ما نكون عن القول بوجود علاقة نسبية مباشرة بين هذه وتلك . بل نحن نرى أن العامل الحاسم فى شدة المشاعر هو مقدار النقصان أو الزيادة فى كمية الطاقة فى

أية لحظة من اللحظات . ولقد تستطيع الأبحاث التجريبية أن تهدى فى هذا الصدد إلى بعض الحقائق النافعة ، غير أنه من الخير أن يتجنب المحلل النفسى الغوص فى هذه المسائل قبل أن يجمع من المشاهدات المحدودة الثابتة ما يمكن أن يهديه فى مثل ذلك البحث .

على أننا لا نستطيع أن نبقى على ما شعرنا به قبلا من عدم الاحتفال ، إذا نحن وجدنا أن عالماً بلغ من دقة النظر مبلغ ج . فيشنر يقول برأى فى اللذة وعدم اللذة يقرب فى صميمة من الرأى الذى اهتدينا إليه نتيجة لأبحاثنا فى التحليل النفسى . ولقد أدلى فيشنر برأيه فى كتابه الصغير[١] على المنوال الآتى « لما كانت الدوافع الشعورية تتصل أبداً باللذة أو عدم اللذة ، حق لنا أن نرى أن هناك صلة نفسية بدنية بين اللذة وعدمها من ناحية وبين حالات الثبات وعدم الثبات من ناحية أخرى ، ويمكن أن نقيم على وجود هذه الصلة فرضاً سوف أعمل على إثباته بالتفصيل فى مكان آخر ، ألا وهو أن كل فعل « نفسى بدنى » يصعد إلى ما فوق « عتبة الشعور »[٢] يصحبه من اللذة ما يتناسب وقربه — زيادة على حد معين — من التوازن التام ويصحبه من عدم اللذة ما يتناسب وقربه من عدم التوازن المطلق فيما يزيد على حد معين أيضاً . على حين أنه يقع بين الحدين اللذين يمكن أن ندعوهما من الناحية الكيفية بعتبتى اللذة وعدم اللذة منطقة من عدم الاحتفال الجمالى » .

(١) [G.T. Fechner : *Einige Ideen zur Schopfungs — und Entwicklungsgeschichte der Organismen*, 1873]

(٢) « عتبة الشعور » هى المستوى الذى تبدأ عنده الخبرة فى الظهور فى نطاق الشعور . فمن الحقائق الأساسية فى علم النفس وعلم وظائف الأعضاء أن مثير أية حاسة من الحواس لا بد أن تكون له قوة معينة حتى يمكن إدراكه أو يؤدى إلى استجابة من الاستجابات. وتختلف «عتبة الشعور» باختلاف الأفراد ، بل هى تختلف فى الفرد الواحد تبعاً للتعب أو التمرين ولغير هذا وذاك من الأسباب المعروفة والمجهولة . (المترجم) .

إن الحقائق التى أدت بنا إلى القول بأن مبدأ اللذة يسيطر سيطرة تامة على الحياة النفسية ، أدت بنا أيضاً إلى التعبير عن هذا فى فروض علمى ، يذهب إلى أن الجهاز النفسى يعمل على خفض كمية الاستثارة التى يتعرض لها إلى أدنى حد ممكن أو أن يبقيها على الأقل ، ثابتة لا تتغير . وليس هذا سوى مبدأ اللذة فى صيغة أخرى ، ذلك لأنه إذا كان الجهاز النفسى يعمل على خفض كمية الاستثارة إلى أدنى مستوى مستطاع ، ترتب على هذا أن كل ما يؤدى إلى زيادة تلك الكمية لا بد أن يعتبر مناقضاً لوظيفة ذلك الجهاز ، أى أنه يسبب شعوراً بعدم اللذة . وعلى هذا المنوال يكون مبدأ اللذة مشتقاً من مبدأ الثبات ؛ غير أننا فى الواقع قد اهتدينا إلى مبدأ الثبات نفسه من الحقائق التى ألزمتنا أن نقول بمبدأ اللذة (١) . وسوف يتضح لنا ، بالإضافة إلى ذلك ، مما سوف نستعرضه فيما يلى ،أن نزعة الجهاز النفسى التى نتحدث عنها هنا يمكن أن تعتبر حالة خاصة من المبدأ الذى يقول به فيشنر ، ألا وهو "الميل إلى الثبات" ذلك الميل الذى ربط به أحاسيس " اللذة وعدم اللذة " .

على أنه ينبغى ، برغم ذلك أن نؤكد أنه ليس من الصائب كل الصواب أن نتحدث عن غلبة مبدأ اللذة وسيطرته على سير العمليات النفسية . إذ لو كان الأمر على هذا المنوال لكانت الغالبية العظمى من عمليات الإنسان النفسية

[(١) يعود القول «بمبدأ الثبات» إلى الأيام الأولى من اشتغال فرويد بالمباحث النفسية . وكان أول من تعرض لدراسة هذا المبدأ بالتفصيل زميله « بروير »،فى القسم النظرى من كتابهما « دراسات فى الهستريا » (١٨٩٥) . ويذكر بروير فى هذا الكتاب تعريفاً لمبدأ الثبات (فى عبارات شبه فسيولوجية) فيقول إنه « الميل إلى إبقاء استثارة المخ فى مستوى ثابت » . وهو فى نفس الفقرة ينسب القول بهذا المبدأ إلى فرويد . والواقع أن هناك إشارة أو اثنتين ، موجزتين كل الإيجاز ، عن مبدأ الثبات سبق بهما فرويد ما قاله بروير ، رغم أن ما ذكره فرويد عن هذا لم ينشر إلا بعد وفاته (انظر « خطاب إلى يوسف بروير » ١٨٩٢، فى الجزء الخامس من مجموعة المقالات ؛ باللغة الإنجليزية ، ١٩٥٠) .]

مصحوبة حتما باللذة أو مؤدية إليها ، على حين أن الخبرة المألوفة تنفى مثل هذه النتيجة نفياً تاماً . غير أنه لا مفر من القول بأن فى النفس الإنسانية نزعة قوية وميلا غالباً إلى التزام مبدأ اللذة ، لكن هناك من القوى والظروف ما يعارض تلك النزعة معارضة تؤدى إلى أن الأمور لا تنتهى فى كافة الأحوال إلى نهاية توائم مبدأ اللذة ، وهاك ما يذكره فيشنر بهذا الصدد (ص ٩٠ من الكتاب المذكور) : « بما أن النزعة إلى هدف معين لا تستلزم على الدوام الوصول إلى هذا الهدف ، وبما أننا لا نستطيع بصفة عامة تحقيق الغايات التى نهدف إليها إلا بقدر معين ... » .

فإذا بدأنا نعرض للبحث فى الظروف التى تؤدى إلى تعطيل العمل بمبدأ اللذة وإلى وقف تنفيذه ، وجدنا أنفسنا فى ميدان أمين مطروق نعرف فيه لخطانا مواضعها ، ونستطيع أن نعتمد فيه معين فياض من ألوان الخبرة التى اهتدينا إليها عن طريق التحليل النفسى .

وأول مثل للعقبات التى يصطدم بها مبدأ اللذة عقبة وقفنا عليها منذ زمن طويل ، وبلغت معرفتنا بها حداً نستطيع معه أن نقول بسواء ورودها وانتظام حدوثها . فمن المعروف جيداً أن الجهاز النفسى للإنسان يهدف بطبيعته ، ووفقاً لصميم تكوينه ، إلى التزام مبدأ اللذة ، وهذه طريقة « أولية » [1] للعمل .

---

(١) العمليات الأولية هى كافة العمليات التى تجرى فى اللاشعور أو التى يقوم بها « الهو » فى سبيل الحصول على الإشباع ، وسعياً وراء إرضاء الميول الفطرية التى لم تعدل . وتظهر هذه العمليات على أخلص أشكالها فى الأحلام . وهذه العمليات تتجاهل الزمن والواقع ولا تخضع للاعتبارات المنطقة المألوفة ومن أمثلتها عملية التكثيف ومنه مثلا إخراج صورة شخص من عدة أشخاص أو اسم جديد من عدة أسماء مختلفة ؛ وعملية النقل (أو الإبدال) وهى إلصاق الأهمية الوجدانية لأمر أو لشخص بغيره من الأمور أو الأشخاص ؛ أو عملية الإخراج المسرحى وهى الجمع بين الماضى والحاضر بل المستقبل فى فترة واحدة كما تخرج القصة على المسرح . . . الخ (المترجم) .

غير أن هناك من الصعاب التى يفرضها العالم الخارجى ما يجعل السير وفق هذا المبدأ سيراً مطلقاً دقيقاً من الأمور الصعبة العسيرة ، بل من الأمور التى لا يتأتى عنها سوى تعريض الكائن الحى لأشد المخاطر ، بل إلى إلحاق الأذى به ، ومن ثم تؤدى غرائز « الأنا » (١) التى تعمل للمحافظة على البقاء إلى أن تستبدل النفس بمبدأ اللذة مبدأ الواقع الذى يهدف هو أيضاً إلى الحصول على اللذة آخر الأمر ، غير أنه يدفع بالمرء إلى تأجيل الإشباع ، وإلى التخلى عن كثير من الأمور التى تتيح ذلك أو تؤدى إليه ، بل يدفع به إلى تقبل عدم اللذة قبولا مؤقتاً خلال السير فى ذلك الطريق الملتوى الطويل الذى ينتهى به إلى الظفر باللذة . ورغم هذا فإن الدوافع الجنسية ، تلك الدوافع التى لا يتيسر أن نتناولها بالتربية والتهذيب ، تبقى أمداً طويلا وهى لا تلتزم فى نشاطها سوى مبدأ اللذة ؛ وكثيراً ما يقع أن يسيطر هذا المبدأ سيطرة مطلقة على الدوافع الجنسية أو يغلب على نشاط « الأنا » نفسه غلبة تطيح بمبدأ الواقع وتنتهى إلى إيقاع أكبر الأذى بالكائن الحى جميعاً .

على أنه مما لا شك فيه أن التخلى عن مبدأ اللذة واتخاذ مبدأ الواقع لا يفسر إلا جانباً ضئيلا من الأحاسيس المؤلمة ولا يلقى ضوءاً على سر الشعور بالألم المرير الذى يعرض للإنسان . فهناك شكل آخر من الأحاسيس المريرة المؤلمة ، لا يقل حدوثه عن ذاك ، يتأتى منه ألوان الصراع والتشاحن التى تقع فى الجهاز النفسى حين تكون « الأنا » بسبيل النمو نحو شكل من النظام أكثر ارتفاعاً وأدق تركيباً وتعقيداً . وإنه ليمكن القول بأن كافة الطاقة التى ينطوى عليها

(١) « الأنا » هو ذلك الجانب من النفس الذى يتميز نتيجة للاتصال بالعالم الخارجى ، والذى يقوم بوظيفة الوقوف على الواقع وبوظيفة قبول بعض الرغبات أو المطالب التى تصدر عن الدوافع الفطرية بعد ضبطها والانتقاء منها ، « والأنا » يتصف بالشعور ، على أن بعضه — رغم ذلك — لا شعورى . (المترجم) .

الجهاز النفسى إنما تصدر عن الغرائز والدوافع التى فطر عليها الإنسان ، غير أنه لا يقيض لكافة تلك الميول الموروثة أن تصل إلى درجة واحدة من التحول والنمو. إذ أنه كثيراً ما يقع ، خلال هذا النمو ، أن يستحيل التوفيق — فيما يتصل بالأهداف والمطالب — بين بعض هذه الغرائز وبعضها الآخر ، أو بين بعض نواحى الغرائز ونواحى بعضها الآخر ، الذى يكون قد تمكن من الاندماج فى وحدة « الأنا » الشاملة ، ومن ثم تستبعد تلك الميول الغريزية من هذه الوحدة عن طريق الكبت ، وتستبقى فى المستويات الدنيا للنمو النفسى ، ويحال بينها — وقتاً ما — وبين الإشباع حيلولة مطلقة . على أن تلك الغرائز تنجح أحياناً ، وكثيراً ما تنجح الميول الجنسية المكبوتة ، فى شق طريقها نحو الإشباع المباشر أو غير المباشر خلال سبل خافية ملتوية . لكن هذا النجاح الذى كان يرجى منه أن يؤدى إلى الظفر باللذة فى الظروف الأخرى يكون مصدراً « لألم » الأنا . هكذا يقع أن يخرق مرة أخرى مبدأ اللذة الذى كان قد انتهى الصراع القديم بالعمل على كبته ، فى نفس الوقت الذى كانت بعض الدوافع فيه تعمل جاهدة على الفوز بأكبر جانب ممكن من اللذة تحقيقاً لذلك المبدأ وانتصاراً له . ورغم أننا لم نقف بعد على كافة تفاصيل العملية النفسية التى تؤدى بالكبت إلى تحويل ما كان يرجى منه الحصول على اللذة إلى مصدر لعدم اللذة ، ولا نستطيع بعد أن نصف تلك العملية وصفاً شافياً واضحاً ، إلا أنه من المؤكد أن كل "ألم" يتصل بالعصاب والأمراض النفسية ، إنما هو من ذلك النوع ، أى أنه فى صميمه لذة لم يمكن الظفر بها على أنها كذلك .

ومع أن مصدرى عدم اللذة اللذين أسلفنا الحديث عنهما لا يستغرقان جميع الخبرات النفسية المؤلمة التى تعرض للإنسان إلا أنه يمكن القول — فى شىء غير قليل من الثقة — بأنه إن وُجِد غير هذين المصدرين لم يكن ذلك

مما ينتقص من سيطرة مبدأ اللذة وغلبته . إن أغلب "الألم" الذى نستشعره إنما هو من النوع الإدراكى ، هو إدراك للضغط الذى يتأتى من الغرائز الجائعة التى تتطلب الإشباع ، أو إدراك لأمر من العالم الخارجى يمكن أن يكون مصدراً للألم حقاً أو يمكن أن يثير فى الجهاز النفسى ترقباً مؤلماً ويبعث فى النفس توقعاً « للخطر » . إن رد الفعل على مطالب تلك الغرائز الجائعة وعلى توقع تلك الأخطار الداهمة ، ذلك الرد الذى يتطلب من الجهاز النفسى أن يستخدم كل ما ينطوى عليه من طاقة ونشاط يمكن أن ينظم إما وفق مبدأ اللذة خالصاً غفلا ، أو وفقاً لمبدأ الواقع(١) بعد تعديله . وعلى هذا يبدو أننا لسنا بحاجة إلى العثور على قيد يحد من نشاط مبدأ اللذة أكثر من ذلك القيد ، ومهما يكن من أمر فليس هناك خير من البحث فى إرجاع النفس على الأخطار الخارجية يمكن أن يزودنا بالمعلومات الجديدة وأن يهدينا إلى كيفية دراسة المسائل التى تتصل بالمشكلة التى نحن بصددها .

(١) مبدأ الواقع : هو ميل الجهاز النفسى إلى تقييد الإشباع المباشر للغرائز البدائية حتى يكون إشباعها آخر الأمر متفقاً مع الحدود التى تفرضها الظروف الخارجية بما فيها من أوضاع المجتمع والعرف والأخلاق ، وما إلى هذا وذاك (المترجم) .

الفصل الثانى

إذا ما لحقت بالمرء صدمة آلية خطيرة ، أو تعرضت حياته للخطر فى إحدى حوادث السكك الحديدية أو ما يشابهها ، فقد تنشأ عن ذلك حالة تنبهت لها الأذهان منذ وقت بعيد،وأطلقت عليها عبارة « عصاب الصدمة » . ولقد أدت الحرب الطاحنة ، التى انتهت أخيراً ، إلى إصابة عدد ضخم من الناس بهذه الأمراض النفسية ، كما أن تلك الحرب قد قضت على النزعة التى كانت تدفع إلى تفسير مثل تلك الأمراض على أنها نتيجة لإصابة عضوية تلحق بالجهاز العصبى إذا ما نزلت به حادثة آلية عنيفة[1] .وتبدو أعراض عصاب الصدمة على ما يقرب من عين الصورة التى تبدو بها الهستريا : فى كثرة الأعراض الحركية التى تظهر على المرضى بذلك المرض . غير أن عصاب الصدمة يفوق الهستريا فيما يظهر على المريض من آلام ذاتية شديدة ، حتى ليشبه فى هذا مرض الهجاس السوداوى أو مرض الملانخوليا ، وفيما يبدو على المريض من دلالات الإعياء الشامل والاضطراب والفوضى التى تلحق حياته العقلية بأجمعها . ولم يستطع العلم بعد أن يقف على جميع أسرار عصاب الحرب أوعلى سر عصاب الصدمة فى زمن السلم،ولم يوفق بعد إلى أن يلقى على هذا أو ذاك ضوءاً كافياً .أما فيما يتعلق بعصاب الحرب فإنه مما كان يحل الموقف ويزيده تعقيداً فى نفس الوقت،أن نفس المرض قد يصيب بعض الناس دون أن تسبقه أية صدمة

[(١) انظر كتاب « التحليل النفسى لعصاب الحرب » بأقلام : فرويد ، فيرينزى، أبراهام سيمل وجونز (١٩١٩) .]

آلية خطيرة أو تصادفه أية حادثة ذات بال . على حين أن عصاب الصدمة المألوف يتميز بمظهرين يمكن أن نتخذهما مفتاحاً للبحث : أولهما أن العامل المهم الذى يسببه يبدو كأنه ينطوى تحت عنصر المفاجأة والفزع ؛ والثانى أنه إذا لحقت بالمرء إصابة أو جرح أدى هذا بصفة عامة إلى منع وقوع المرض النفسى به . ويظن الناس أن « الفزع » و « الخوف » و « الجزع » ألفاظ مترادفة مع أن هذا خطأ بعيد عن الواقع ، وما أيسر أن ندرك الفرق بين هذه العبارات فى علاقتها بالخطر . فالجزع يدل على حالة معينة من توقع الخطر والتأهب له سواء أكان هذا الخطر معروفاً أم غير معروف ؛ أما الخوف فهو حالة يبعث إليها أن يصادف المرء خطراً واقعياً ؛ على حين أن الفزع هو الحالة التى تعرض للمرء إذا واجهه خطر لم يكن يتوقعه ويشيع فى هذا عنصر المفاجأة . ولست أظن أن الجزع يمكن أن يؤدى إلى عصاب الصدمة ، لأن فى الجزع أمراً يقى المرء من الفزع ومن ثم يحميه من العصاب الذى يؤدى إليه الفزع . وعلى أية حال فهذه نقطة سوف نتناولها بالبحث فى مكان تال . (انظر ص ٣٨ وما يليها)

ويمكن أن نعتبر الأحلام خير وسائل البحث التى يمكن أن نأمن إليها فى الكشف عن عمليات النفس العميقة . إذا اهتدينا بهذا ، وجدنا أن أحلام المريض بعصاب الصدمة تتميز بهذه الخاصة : هى أنها تواصل العودة به إلى الموقف الذى حلت به النكبة فيه ، وإذا به أبداً يستيقظ وقد أخذه الرعب مرة أخرى واشتد فزعه . وهذا أمر لم يفطن الناس له كما تنبغى الفطنة ، وحقيقة تستدعى البحث والإيضاح ، إذ أن الناس لا يرون فى معاودة الحادث لذهن المريض ، حتى فى خلال نومه ، سوى دلالة على شدة الأثر الذى تركته الصدمة فى نفسه ، حتى يمكن أن يقال إنه قد وقع بالمريض تثبيت نفسى على الصدمة . ومنذ عهد طويل عرفنا ألوان التثبيت على الخبرة التى أدت إلى المرض فيما

يتصل بالهستريا . فقد قرر بروير وفرويد منذ عام ١٨٩٣ « أن المصابين بالهستيريا يعانون ، أشد ما يعانون ، بما بقى فى الذاكرة » . وفيما يختص بعصاب الحرب فقد ذهب بعض الباحثين مثل « فيرينزى »[١] و « زيميل » إلى تفسير بعض الأعراض الحركية على أنها تثبيت على الحادثة أو الصدمة .

غير أنه لم يتناه إلىّ أن المرضى المصابين بعصاب الصدمة تشغلهم فى حياة الصحو ذكرى ما نزل بهم من قبل . بل الأغلب أنهم يجاهدون كى لا تخطر لهم ذكرى الحادث الذى أصيبوا به . فإذا قلنا إن أحلامهم بالليل يلزم أن تعود بهم إلى الموقف الذى أدى إلى وقوع المرض كان هذا قولا يدل على خطأ فى فهم طبيعة الحلم . ذلك لأنه مما يوائم تلك الطبيعة أن تحتوى أحلام أولئك المرضى على صور ترتد أصولها إلى الوقت الذى كانوا يستمتعون فيه بالصحة الموفورة أو تشير إلى الأمل فى الشفاء .

كيف نستطيع أن نفسر الدافع إلى أحلام هؤلاء المرضى التى تدور حول الصدمة وحول الألم بينما نحن نعرف أن من طبيعة الحلم تحقيق الرغبات ؛ إلا أن تكون وظيفة الحلم عندهم قد أصابها الاضطراب هى الأخرى كما أصاب غيرها ، اضطراباً حوّلها عن الأهداف العادية المألوفة أو أن نلتمس التفسير فى تلك النزعات الماسوكية[٢] التى تحير الألباب . تلك النزعات التى تصدر عن الأنا .

---

(١) شاندور فيرينزى Sandor Ferenezi طبيب مجرى (١٨٧٤ – ١٩٣٣) من رواد التحليل النفسى ومن أوائل من عاونوا فرويد فى تقدمه . وله عدة مؤلفات ترجم منها إلى اللغة الإنجليزية : Contributions to Psycho-analysis, Sex & Psycho-analysis, Further ، Contributions. هذا عدا مباحث أخرى منشورة فى المجلة الدولية للتحليل النفسى . وإلى فيرينزى تعود الفكرة فى إنشاء الجمعية الدولية للتحليل التى اقترحها فى مؤتمر نورمبرج ١٩١٠ . وعنه قال فرويد ١٩١٤ « لم تنجب المجر حتى الآن سوى واحد من المساهمين (فى حركة التحليل) غير أنه ليرجح فى الأهمية والوزن جمعية بأكملها » (المترجم) .

(٢) الماسوكية Masochism هى حصول الشخص على الإشباع الجنسى من تلقى الأذى النفسى أو البدنى الذى ينزله به المحبوب . (المترجم) .

* * *

فلنترك الآن موضوع عصاب الصدمة على خفائه و إقتامه ، ولنبحث فى ناحية من نواحى نشاط الجهاز النفسى أثناء أدائه لإحدى وظائفه العادية المألوفة فى مطالع العمر — أعنى لعب الأطفال .

قام باستعراض مختلف النظريات عن لعب الأطفال ، والبحث فيها أخيراً ، على ضوء التحليل النفسى ، «سيجمند پفايفار» فى بحث نشرته مجلة إيماجو (المجلد الخامس ١٩١٩) الذى أود أن أرد القراء إليه . وقد حاول فى بحثه أن يصل إلى الدوافع التى تدفع بالأطفال إلى اللعب ، غير أنه لم يحفل كثيراً بالناحية الاقتصادية أى بالبحث فى صلة اللعب بمقدار ما يؤدى به إلى اللذة . ورغم أنى لم أكن أنتوى القيام بدراسة شاملة لكافة هذه الظاهرات ، فقد انتهزت إحدى الفرص العارضة التى سنحت لى للبحث فى أفعال ولد صغير كان يبلغ من العمر ثمانية عشر شهراً . ولكن الأمر لم يقتصر بى على المشاهدة العارضة ، لأنى عشت عدة أسابيع فى دار واحدة ، مع ذلك الطفل وأهله ، وانقضى من الوقت زمن طويل قبل أن يتضح لى معنى أفعاله المحيرة التى كان يواصل تكرار القيام بها .

لم يكن ذلك الطفل سابقاً لسنه فى أية ناحية من النواحى العقلية ، كان حين بلغ شهوره الثمانية عشر لا يتفوه إلا بقليل من الكلمات المفهومة إلى جانب بعض الأصوات ذات الدلالة التى يستطيع فهمها من يعيشون معه . وكانت علاقته بوالديه وبالخادمة علاقة طيبة ، وكانت سمعته حسنة وجميع من حوله يشهدون له بالسلوك « الطيب » . كان لا يزعج أبويه ليلا ، ويطيع طاعة دقيقة تلك الأوامر الخاصة بعدم لمس بعض الأشياء أو العبث بها ، أو تلك الخاصة بعدم الدخول أو الدوران فى بعض غرف الدار . وأهم من هذا كله أنه لم

يكن يبكى ألبتة أو يصيح إذا خرجت أمه من البيت وتركته ساعات بأكملها رغم أنه كان متعلقاً بها تعلقاً شديداً ؛ إذ أنها لم تكن قد أرضعته من ثدييها فحسب ، بل كانت هى التى عنيت بتربيته وقامت برعايته وحدها دون معونة أحد . ومع ذلك فإن هذا الطفل الصغير المهذب كان يمارس بين الحين والحين عادة مزعجة تبعث على السخط : فقد كان يقذف كل ما يقع تحت يده من أشياء إلى أحد أركان الحجرة أو تحت الفراش وما إلى ذلك ؛ ولم يكن بالأمر اليسير جمع هذه الأشياء أو العثور عليها . وكان إذ يقذف بهذه الأشياء بعيداً تبدو عليه أمارات المتعة والارتياح ويخرج صوتاً طويلا « أو و و ه » ، ولم يكن هذا على حد قول أمه ــ وكان ذلك ما أراه أيضاً ــ مجرد صوت من أصوات التعجب بل كان يعنى به « لقد ذهب بعيداً » . فهمت آخر الأمر أن هذه كانت لعبة ، وأن الطفل كان يستخدم كل دماه كى يلعب بها لعبة « قد ذهب بعيداً » أو « اختفت الأشياء » . وحدث يوماً أن شاهدت ما أيد الرأى الذى ذهبت إليه . كان لدى صاحبنا الصغير « بكرة » إلتفّ حولها بعض الخيط ، فلم يخطر له مرة واحدة أن يجرها خلفه وأن يلعب بها لعبة الحصان والعربة ، بل واصل قذفها بعيداً فى مهارة عجيبة خلف سريره ، وهو ممسك بالخيط حتى إذا إذا ما اختفت البكرة قال عبارته : « أو و و ه » ثم عاود جذبها مرة أخرى وبدا عليه الارتياح قائلا فى سرور « ها » يعنى « هنا » . كانت هذه إذن لعبته بأكملها : الاختفاء ، والعودة . على أنه لم يكن يظهر جلياً منها لمن يشاهدون ذلك سوى الجانب الأول ، ذلك الجانب الذى كان يكرّره الطفل دون ملل أو عناء كأنه لعبة يستمتع بها فى نفسه ، رغم أنه كان يستمد أكبر المتعة دون شك من الجانب الثانى من اللعبة[1] .

[(١) زاد هذا التفسير تأييداً ملاحظة أخرى. حدث يوماً بعد أن بقيت الأم عدة ساعات خارج=

لم يكن معنى اللعبة إذن عسيراً على الفهم . فقد كانت تتصل بما وصل إليه الطفل من تكيف حسن ناجح ، أى بقدرته على التخلى عن مطالب إحدى الغرائز تخلياً كان من نتيجته أن استطاع ترك أمه تخرج من البيت وتتركه دون أن يصدر عن الطفل احتجاج أو جلبة . ولقد عوّض نفسه عن ذلك أو صحّح الموقف — إن استطعنا استخدام هذه العبارة — بأن أخذ يقوم بتمثيل هذه القصة التى تدور حول رحيل أمه وعودتها مستخدماً ما كان يقع بين يديه من الأشياء . وليس من المهم أيضاً فى تقدير القيمة الوجدانية لهذه اللعبة أن نعرف إن كان الطفل قد اخترعها بنفسه أو أنه استوحاها من بعض الأشياء أو الأشخاص . فإن اهتمامنا ينبغى أن يدور حول ناحية أخرى : ذلك أنه من المحقق أن رحيل الأم لم يكن أمراً يرتاح له الطفل ، أو أمراً لا يحفل به . فكيف يمكن أن نوفق بين مبدأ اللذة وبين تكرار الطفل لهذه الخبرة المؤلمة واتخاذها مداراً لألعابه ؟ قد يكون الجواب أن الرحيل لا بد من تمثيله فى اللعب كمقدمة لازمة للصورة المفرحة ، وأن غاية اللعبة الحقيقية كانت تنطوى بين ثنايا هذا الجانب الأخير . على أنه مما ينافى هذا التفسير ، أن الفصل الأول من اللعبة ، أى الرحيل ، كان لعبة قائمة بذاتها يمارسها الطفل وحدها أكثر بكثير من الرواية كلها بما فيها الخاتمة المفرحة التى ترمز إلى عودة الأم .

إن تحليل حالة واحدة من هذا النوع لا يؤدى بنا إلى نتيجة مقنعة حاسمة ، بل إن الملاحظة التى خلت من التحيز لتبعث على الظن بأن الطفل إذا كان قد جعل من تلك الخبرة مدار لعبة يلعبها فقد كان هذا نتيجة لأسباب ودوافع

= الدار أن حياها الولد عند عودتها بقوله «توتو أوو» ، ولم يظهر لهذه العبارة أى معنى أول الأمر . غير أن مدلولها اتضح على ضوء ما فعله الطفل أثناء غيبة أمه الطويلة ، وكيف أنه عثر على وسيلة للاختفاء هو نفسه : كان قد رأى صورته منعكسة فى مرآة كبيرة فما كان منه إلا أن جثم على ركبتيه ، الأمر الذى أدى طبعاً إلى اختفاء صورته من المرآة .]

أخرى فقد كان موقفه فى مطلع الأمر « سلبيًّا » ، أى أن الخبرة دهمته ووجد نفسه بإزائها قليل الحيلة ، على أنه بعد ذلك اتخذ موقفاً إيجابياً : بأن أخذ يعيد التجربة ويكررها فى صورة لعب ، رغم أنها لم تكن بالأمر الذى يبعث على المتعة والسرور : ويمكن أن نرد هذا العمل إلى الدافع الذى يبعث المرء على السيطرة على المواقف (غريزة السيطرة) ، ذلك الدافع الذى لا يعتمد على ما فى الموقف من متعة أو عدمها . غير أنه يمكن تفسير هذه المسألة على وجه آخر : إن قذف الشىء قذفاً يؤدى إلى اختفائه يمكن أن يكون إشباعاً للرغبة فى الانتقام ، تلك الرغبة التى كان الطفل يقمعها فى الواقع لكنه كان يشعر بها ضد أمه من أجل ذهابها بعيداً عنه ، حتى لكأنه كان بذلك يتحداها ، وكأنه كان يقول : « طيب ، طيب ! ! فلتذهبى ، إذ لست أريد بقاءك ، ولست بحاجة إليك ، وهأنذا أبعدك عنى بنفسى » . تقدمت السن بهذا الطفل ، وبعد عام من مشاهدتى لألعابه التى نتحدث عنها ، أى حين بلغ العامين والنصف تقريباً ، أخذ يقذف إلى الأرض بلعبة أخرى لم يكن يميل إليها ويقول « اذهب إلى الجبهة » . وكان ذووه قد أخبروه من قبل أن أباه غائب لأنه كان فى ميدان الحرب ، غير أنه لم يكن يبدو من الطفل أى شوق إلى أبيه ، بل كانت تلوح عليه دلالات واضحة من الارتياح إلى استحواذه على أمه وحيداً دون أن يعكر عليه صفو ذلك أى دخيل أو غريم(١) . ومن المعروف عن الأطفال أنهم يعبرون عن مشاعر الكراهية والحقد بقذف الأشياء بعيداً رمزاً عن الأشخاص الذين يكرهونهم . ومن ثم حق لنا أن نتساءل عما إذا كانت الرغبة

[(١) حين كان هذا الطفل يبلغ الخامسة والتسعة الشهور توفيت أمه . على أنه ، وقد ذهبت عنه هذه المرة بالفعل إلى غير عودة ، لم يبد عليه أى حزن لفقدها – وربما كان سبب ذلك أنها كانت قد ولدت فى ذلك الوقت طفلا ثانياً ، وكان هذا قد أثار فى صاحبنا غيرة حادة شديدة .]

الملازمة التى تدفع المرء إلى أن يهضم ويمثل فى حياته النفسية ما مر بخبرته من أحداث مؤثرة وأن يسيطر عليها ، إنما هى رغبة وإجبار قائم بذاته مستقل عن مبدأ اللذة . على أن الطفل فى هذه الحالة التى نحن بصددها ، يمكن أن يكون تكراره للخبرة المؤلمة عن طريق اللعب مصدراً للذة من نوع آخر لكنه ، مع ذلك ، مصدر للحصول على اللذة عن طريق مباشر .

ومهما استزدنا فى دراسة لعب الأطفال ، فلن نستطيع أن نصل إلى ما يمكن أن يؤدى بنا إلى رأى حاسم يقطع ترددنا بين هذين الرأيين . نشاهد أن الأطفال يكررون فى لعبهم كل ما كان له أثر كبير فى حياة الواقع ، وهم بذلك يتخففون من قوة هذا الأثر ، حتى لكأنهم بهذا يسيطرون على الموقف . غير أنه من من الواضح ، من الناحية الأخرى ، أن لعبهم بأكمله يتأثر كله برغبة ملحة تلعب دوراً هاماً فى الطفولة ، ألا وهى الرغبة فى أن يكونوا كباراً ، وأن يتمكنوا من فعل ما يفعله الكبار . ومن المشاهد أيضاً أن إيلام الخبرة التى مرت بالطفل لا يمنعه على الدوام من استخدامها مداراً للعبة . فلو أن طبيباً فحص حنجرة أحد الأطفال أو أجرى عليه عملية جراحية صغيرة لكانت هذه بالطبع ذكريات أليمة لكن الطفل سرعان ما يتخذها موضوعاً لألعابه ، وهو يستمد من هذا متعة ولذة تتأتى من ناحية أخرى لا ينبغى علينا إغفالها . ذلك أن الطفل إذ يترك موقفه السلبى الذى أدى إلى وقوع الألم به ويتخذ موقفاً إيجابياً يدفعه إلى أن ينزل فى اللعب بطفل آخر مثل ما نزل به هو — قبل ذلك — من أوجاع ، إنما هو ينتقم لنفسه من زميله فى اللعب نيابة عن الطبيب وما أوقعه به .

ومهما يكن من أمر فإنا نخرج من هذا البحث بأن تفسير اللعب على هذا المنوال بأنه لون من ألوان التقليد إنما هو تفسير واهٍ لا نفع فيه . ويمكن أن نزيد على هذا أن فنون التمثيل والتقليد الفنىّ التى يمارسها الكبار ، تلك الفنون

التى تختلف عن سلوك الأطفال فى أنها تبغى التأثير على النظارة تأثيراً مباشراً ، لا تعفيهم من مشاهدة أشد المواقف المؤسية مثل ما يقع فى المآسى التى يستمتع بها المشاهدون رغم تألمهم منها . ويثبت لنا هذا أنه رغم سيطرة مبدأ اللذة فهناك من السبل والوسائل ما يكفى لإبقاء الأمور المؤلمة فى الذاكرة وجعلها شغلا شاغلا للنفس . هذه الأحوال والمواقف التى تؤدى آخر الأمر إلى زيادة الحصول على اللذة أمر ينبغى أن تبحث فيه فلسفة الجمال بحثاً يعتمد على وجهة النظر الاقتصادية إلى نشاط النفس . على أنه ليس لمثل هذا البحث أى نفع لنا فيما نحن بصدده ، لأن تلك الفلسفة تفرض وجود مبدأ اللذة وسيطرته ، ولا تعلمنا شيئاً عن مظاهر الميول الأخرى التى تعلو عن مذهب اللذة ، وهى ميول مستقلة عنه وأقدم فى الأصل منه .

الفصل الثالث

إن خمسة وعشرين عاماً طوالا من العمل والبحث قد أدت إلى أن تستهدف طريقة التحليل النفسى أغراضاً مباشرة تختلف اختلافاً تاماً عن الأغراض التى كانت تستهدفها من قبل . فقد كان الطبيب المحلل فى أول الأمر يقتصر فى أهدافه على التماس ما كان يختبئ فى لاشعور المريض ، دون أن يفطن هذا إلى وجوده ، وأن يوفق المحلل بين تلك العناصر اللاشعورية التى كشف عنها ويدلى بذلك إلى المريض فى الوقت المناسب . وهكذا كان التحليل النفسى ، فوق كل شىء ، فناً يعمل على التفسير . غير أنه لما تبين عجز هذا الفن عن مهمة العلاج ، صار الهدف الذى نرمى إليه أن نلزم المريض بتأييد ما اهتدينا إليه خلال التحليل بالاعتماد على ما وعته ذاكرته واسترجاع ما مر بخبرته . غير أنه كان يقف دون هذه الغاية ما كان يقع بالمريض من أنواع المقاومة ، ومن ثم صار فن التحليل يقوم على التبكير بالكشف عن هذه المقاومات ما أمكن التبكير ، وعلى جذب انتباه المريض إليها ، وعلى تعليمه كيف يتخلى عنها باستخدام مالنا من أثر عليه هو أثر إنسان على آخر — وهنا كان يدخل عنصر الإيحاء ، الذى يستمد قوته من التحويل[1] .

---

(١) التحويل Transference هو فى الأصل انتقال الأثر الوجدانى الذى يترتب على فكرة أو موقف نفسى إلى فكرة أو موقف آخر ؛ ويقصد بالتحويل عادة أن تنتقل مشاعر المريض الطفلية — أثناء العلاج بالتحليل — سواء كانت مشاعر المحبة أو الكراهية من المواقف أو الأشخاص التى ابتعثتها أصلا ، وتدور حول شخص المحلل نفسه . (المترجم) .

ورغم ذلك فإننا كلما تقدمنا فى هذا السبيل ازددنا يقيناً من أن هذه الطريقة هى الأخرى لن تؤدى إلى تحقيق الغاية التى نرمى إليها . ألا وهى إخراج ما فى اللاشعور إلى الشعور . فالمريض لا يستطيع أن يذكر كل ما هو مكبوت فى أعماق نفسه ، بل هو قد لا يتمكن حتى من استرجاع الجانب الأساسى منه ، استرجاعاً لا يتأتى بدونه أن يقتنع بصحة النتائج التى ندلى بها إليه ، فإذا به ملزم بأن يعيد فى الحاضر ما هو مكبوت بدلا من أن يستعيده فى ذاكرته على أنه جانب من الماضى ، استعادة كان يؤثر المعالج أن يراه يقوم بها . ويظهر هذا التكرار فى شكل دقيق ويلتزم من الأمانة ماقد ينفِّر ، وهو إلى هذا يتضمن على الدوام جانباً من حياة الطفل الجنسية ، وبالتالى من عقدة أوديب[1] وما يتشعب عنها . ويقع هذا كله فى ميدان التحويل أى ميدان العلاقة مع الطبيب . فإذا ما وصل العلاج إلى هذه النقطة ، أمكن أن يقال إن العصاب السابق قد حل محله عصاب جديد ، ألا وهو عصاب التحويل . وهنا يتوخى الطبيب أن يحدّ من مدى هذا العصاب التحويلى ما أمكنه الحد، وأن يضيق من نطاقه ما أمكن التضييق، وأن يدفع إلى نطاق التذكر أكثر ما يمكنه أن يدفع ، وألا يترك من الأمور للتكرار فى الحاضر إلا أقلها ولا يترك مريضه يعيد منها فى حياته إلا أيسر نذر ممكن . وتختلف النسبة بين التذكر والإحياء من حالة إلى أخرى . ولا يستطيع الطبيب ،

---

(١) عقدة أوديب Oedipus complex : من الأسطورة الإغريقية عن أوديب بن لايوس ملك طيبة الذى كتبت عليه الآلهة أن يقتل أباه ويتزوج أمه ... إلى آخر القصة . ويقصد بهذه العقدة فى نظريات التحليل مجموعة الأخيلة والأوهام والوجدانات التى تتصل برغبة الطفل فى الاستحواذ على الوالد من الجنس الآخر ، وهذه هى عقدة أوديب الإيجابية ؛ أما الرغبة فى الاستحواذ على الوالد أو الوالدة من نفس الجنس فتعرف اليوم باسم عقدة أوديب السلبية . وتنطوى هذه العقدة فى كلا الحالين على أخيلة وأوهام تقوم على الرغبة فى التخلص من الوالد الغريم (المترجم) .

بصفة عامة ، أن يجنب المريض هذا الوجه من العلاج ، إذ ينبغى عليه أن يتركه يعيش مرة أخرى جانباً من حياته المنسية ، على أنه ينبغى أن يعنى بأن يبقى للمريض بعض التباعدوالحياد حتى يستطيع على ضوئه أن يدرك أبداً أن الواقع الظاهر إن هو إلا ترجيع وانعكاس لماضٍ غاب عن الذاكرة . فإذا أمكن تحقيق هذه الغاية انتهى الأمر باقتناع المريض ، ونتج عن هذا شفاؤه الذى يعتمد على هذا الاقتناع .

وإذا كان على المرء أن يحسن تفهم هذا الوسواس الذى نسميه « إجبار التكرار » الذى يظهر خلال العلاج التحليلى للمرضى ، مستبداً بهم ، ويدفع المريض إلى إعادة الماضى والحياة فيه مرة أخرى كما لو كان جزءاً من الحاضر ، وجب أولا أن نتخلص تماماً من تلك الفكرة الخاطئة التى تزعم بأن ألوان المقاومة التى ينبغى علينا الانتصار عليها إنما تصدر عن اللاشعور . ذلك لأن اللاشعور ، أى الأمور المكبوتة ، لا تبدى أى مقاومة ضد محاولات العلاج ، بلى هى فى الواقع لا تهدف إلا إلى التخلص من الضغط الذى يثقل عليها وإلى شق طريقها إلى الشعور أو إلى التنفيذ بواسطة فعل حقيقى . فالمقاومة التى تظهر أثناء العلاج إنما تصدر عن المستويات والنظم العليا للحياة النفسية ، تلك المستويات التى قامت هى من قبل بعملية الكبت . غير أنه لما كانت دوافع المقاومة ، بل وأشكال المقاومة نفسها ، تكون أول الأمر خلال العلاج أموراً لاشعورية ، كان من اللازم أن نصلح بعض العبارات التى نستخدمها . فمما يمنع الغموض وينفى اللبس ألا نقابل بين الشعور واللاشعور بل بين الأنا المتناسق والعناصر المكبوتة . فلا شك أن جانباً كبيراً من عناصر الأنا يختفى فى اللاشعور ، وذلك الجانب هو نواة الأنا وصميمه ، تلك العناصر التى لا يدخل منها إلى ما قبل الشعور سوى النذر اليسير . فإذا نحن استخدمنا على هذا

المنوال عبارات ديناميكية أو مُنَظَميَّة بدلا من العبارات الوصفية ، أمكن أن نقول إن مقاومة الشخص أثناء التحليل إنما تصدر عن ذاته ، وهكذا يتضح لنا تواً أن إجبار التكرار لابد أن يكون نتيجة ما هو مكبوت فى اللاشعور . ومن المحتمل أن هذه النزعة الموجبة للتكرار لا تظهر أو تنشط إلا بعد أن يكون العلاج التحليلى قد أفلح فى فك أغلال الأمور المكبوتة(١) .

وليس هناك من شك فى أن المقاومة التى تصدر عن الأنا الشعورى والأنا اللاشعورى إنما تعمل وفقاً لمبدأ اللذة ؛ فهى تسعى إلى تجنب عدم اللذة الذى قد يتأتى نتيجة تحرير الأمور المكبوتة . غير أن جهودنا ، من الناحية الأخرى ، تهدف إلى تمكين المريض من احتمال ذلك « الألم » بالالتجاء إلى مبدأ الواقع . لكن ما هى الصلة بين إجبار التكرار ، وهو مظهر لقدرة المكبوت ، وبين مبدأ اللذة ؟ من الواضح أن الجانب الأكبر مما تعود الخبرة به تحت ضغط إجبار التكرار لابد أن يسبب للأنا « ألماً » ، ذلك لأنه يكشف عن نشاط الدوافع الغريزية المكبوتة . لكن هذا ، برغم ذلك ، إنما هو نوع من « الألم » الذى عرضنا له من قبل ، وهو لا يتعارض ومبدأ اللذة ؛ ذلك لأن عدم اللذة يشعر به أحد الأنظمة (الأنا) ، بينما هو يجلب فى عين الوقت لذة ومتعة لنظام آخر (الهو) . على أننا نصل بذلك إلى حقيقة جديدة تسترعى النظر ، ألا وهى أن إجبار التكرار يسترجع من خبرات الماضى ما لا يمكن أن يتضمن أية لذة ، وما لا يمكن ألبتة ، حتى فى الماضى

[(١) هامش أضيف فى طبعة ١٩٢٣ : لقد ذهبت فى مكان آخر (يشير إلى مقاله « ملاحظات عن تفسير الأحلام من النواحى النظرية والعملية » المنشور بالألمانية ١٩٢٣ ، وبالإنجليزية ١٩٥٠ فى مجموعة المقالات)، إلى أن ما يعين إجبار التكرار هو عامل « الإيحاء » فى العلاج — أى خضوع المريض للطبيب ، الذى تمتد جذوره عميقة إلى العقدة الأبوية اللاشعورية .]

السحيق ، أن يكون قد أدى إلى أى إشباع حتى للدوافع الغريزية التى أخفاها الكبت منذ ذلك الحين .

إذا ما تفتحت الحياة الجنسية للطفل ذلك التفتح المبكر كتب عليها أن تنقضى أيامها سريعاً . ذلك لأن الرغبات التى تصدر عنها لا تتفق مع الواقع ، ولا تناسب مرحلة النمو المنقوصة التى يكون الصغير قد وصل إليها . ويقضى هذا التفتح نحبه فى أشد الظروف مدعاة للأسى ويلازمه من من المشاعر ما يثقل على النفس كمداً وإيلاماً . فإن فقدان الحب والخيبة فى الحصول عليه تخلف وراءها إصابة دائمة لاحترام الذات ، تبقى كالندوب فى نرجسية الإنسان وهى ندوب أعرف من خبرتى ، التى توافق ما ذكره مارشينوفسكى (١٩١٨) ، أنها هى العامل الأكبر فى « مشاعر القصور » التى تشيع بين المصابين بالأمراض النفسية . ذلك لأن المشاعر والرغبات الجنسية ، التى يضع دونها نمو الطفل البدنى حدوداً لا تتخطاها ، لا تؤدى إلى أية نتيجة مرضية ؛ ومن هنا يتردد عويله وتنشأ الشكاوى التى نسمعها منه فيما بعد مثل : « إنى لعاجز عن القيام بأى أمر ؛ ولا أستطيع أن أفلح فى شىء » . فوثاق المحبة وعروتها ، التى تربط الطفل — عادة — بوالده من الجنس الآخر ، يعتريها الوهن ويخيب أملها فى الإشباع أو تعتريها الغيرة من ولادة طفل جديد ، مما يكون دلالة قاطعة على خيانة الوالد أو الوالدة التى يتعلق بها الطفل . فإن هو حاول بنفسه أن ينجب طفلا ، وأخذ هذه المحاولة بكل ما يلزم لها من جد الصغار وتوفرهم على الأمر إذا ما رغبوا فيه ، لم يجن من هذه المحاولة سوى الخيبة المخزية المحتومة . هذا إلى أن تناقص المحبة التى كان يلقاها ، وقوارص الكلام أو ألوان العقاب التى قد تنزل به فى سبيل تربيته ، إنما تبين له بياناً لا شك فيه إلى أى حد انحدرت مرتبته لدى ذويه .

تلك هى بعض الإحوال التى يتكرر حدوثها وهى تمثل الأساليب المألوفة التى ينتهى وفقاً لها عهد المحبة الذى ينعم به الأطفال فى أوائل العمر .

وإذا كان المصابون بالأمراض النفسية بسبيل العلاج بالتحليل النفسى ، أخذوا يكررون أثناء « التحويل » كافة هذه المواقف الكريهة وتلك الانفعالات المؤلمة ويعيدونها إلى الحياة فى مهارة فائقة . فهم يعملون على قطع العلاج قبل اكتماله ؛ وهم يعملون على تدبير المواقف التى تبعث فيهم الشعور بالضعة والمذلة ، وهم يحاولون إرغام الطبيب على أن يوجه إليهم قوارص الكلام وأن يسىء معاملتهم ؛ وهم يكشفون من الأمور ما يستثير فيهم الغيرة ؛ وهم بدلا من الوليد الذى كانوا يتحرقون شوقاً إلى إنجابه أيام كانوا أطفالا صغاراً يرسمون خطة أو يتخيلون وعداً بالحصول على هدية سنية — يتبين لنا أبداً أنها لا تقل فى التوهم عما كانوا يتوهمون فى الصغر . وليس فى هذه الأمور جميعاً ما يمكن أن يكون قد أدى إلى اللذة أو المتعة فى الماضى ؛ ولقد يخيل إلينا أنها قد تكون أقل إيلاماً فى الحاضر لو أنها انبثقت كذكريات أو أحلام بدلا من ورودها فى صورة خبرات جديدة مستقلة عن الماضى . ولا شك فى أن تلك الأمور كافة إنما هى أشكال من النشاط الغريزى الذى يقصد به أن يؤدى إلى الرضا والإشباع ، لكن صاحبها لم ينتفع بدروس الماضى الذى لم تؤد الخبرة فيه إلا إلى عدم اللذة . ورغم هذا فإنها تعود وتتكرر تحت ضغط الإجبار .

إن ما يكشف عنه التحليل النفسى خلال ظاهرات التحويل أثناء علاج المصابين بالأمراض النفسية ليمكن أن يشاهد أيضاً فى حياة غيرهم من الأسوياء . فهناك من الناس من يلوح كأن فى أعقابهم حظاً عاثراً أو كأن هناك قضاء غاشما يقف دون خطاهم ؛ لكن التحليل النفسى قد اهتدى منذ عهد بعيد

إلى أن القدر الذى يشكون منه ، وإلى أن مجرى حياة الواحد منهم — فى الجانب الأكبر منه — لم ترسمه الأحداث الخارجية بقدر ما رسموه هم لأنفسهم : إذ فرضته أهواء الطفولة المبكرة ومؤثراتها وحتمته ظروف الماضى لا الظروف التى تقابلهم فى الحاضر . والإجبار الذى يطغى على حياة هؤلاء الناس لا يختلف — على أى وجه من الوجوه — عن إجبار التكرار الذى يسيطر على حياة المرضى بنفوسهم ، رغم أن أولئك الأشخاص الأسوياء الذين أشرنا إليهم لا تبدو عليهم ألبتة أية علامات تدل على أنهم يعانون صراعاً عصابياً يؤدى إلى ظهور أعراض المرض . ومن هذا أنا نلقى كثيراً من الأشخاص تنتهى كافة علاقاتهم بالناس إلى مآل واحد ، وتؤدى بهم أبداً إلى نفس المصير : منهم ذلك الجواد المحسن الذى يجحد إحسانه على الدوام من أحسن إليهم ويولون عنه غاضبين (حتى لكأن « اتق شر من أحسنت إليه » قد وضعت من أجله هو) وهم جميعاً يتفقون فى هذا على ما بين شخصياتهم من تباين واختلاف ، ويلوح كأنه قدكتب على صاحبنا أن يتذوق أبداً نكران الجميل وعلقم الجحود ؛ ومنهم من تنتهى به أية صداقة إلى أن يخونه لا صديق واحد بل كافة من يصادق واحداً بعد الآخر ؛ أو منهم من يرفع ، المرة بعد المرة خلال حياته ، شخصاً إلى أرفع مركز أو أسمى مكانة فى الحياة الخاصة أو العامة ولا تنقضى فترة إلا وقد قوض هو تلك المكانة ، وانتزع منها من رفع ، وأنزله بعد أن رفعه كى يضع بدلا منه شخصاً جديداً ؛ أو ، من هذا أيضاً ، ذلك العاشق الغزل الذى تأخذ كل غرامياته بالنساء نفس المجرى وتنتهى به كل مرة إلى عين النهاية . هذا « الورود الدائم للأمر الواحد » لا يثير عند الباحث منا أية دهشة إذا ما نسبناه إلى السلوك الإيجابى الذى يقوم به الشخص ، وإذا ما استطعنا أن نتميز فى شخصيته سمة أساسية باقية لا تتغير أبداً ،

سمة يلزمها أن تظهر وأن تعبر عن نفسها بتكرار عين الخبرات التى مرت به من قبل . غير أن ما يثير فينا العجب أكثر من هذا بكثير هو الحالات التى يبدو فيها الشخص وكأن الخبرة قد وقعت به وهو سلبى لا حيلة له فى ردها ولا قدرة لديه فى دفعها عن نفسه ، رغم أن نفس القدر يتكرر وينزل به المرة بعد المرة . نذكر من ذلك — على سبيل المثل — تلك السيدة التى تزوجت ثلاث مرات ، وكان كل زوج من هؤلاء يقع فريسة للمرض بعد ذلك ، وكان عليها أن تمرضه حتى توافيه المنية .(١)

ومن أروع الصور الشعرية التى ترسم هذا القدر الغريب ، ما كتبه الشاعر « تاسو » فى ملحمته الغنائية المعروفة « تحرير أورشليم » ؛ وفيها يقتل البطل « تانكريد » — دون فطنة منه — حبيبة قلبه « كلوريندا » حين نازلته بعد أن تنكرت فى درع فارس من فرسان الأعداء . وبعد أن ووريت الثرى قادته خطاه إلى غابة سحرية عجيبة كانت تبعث الرعب فى نفوس رجال الجيش الصليبى ، حيث امتشق حسامه وهوى به على إحدى الأشجار الطويلة السامقة ، فإذا الدماء تتدفق من حيث شق الشجرة ، وإذا صوت « كلوريندا » حبيبته ، التى كانت روحها قد التجأت إلى هذه الشجرة ، يصيح به متوجعاً معاتباً إياه على أن أنزل بمعبودة فؤاده مرة ثانية مثل ما أنزله بها من قبل .

فلو أنا رأينا إلى مثل تلك المشاهدات ، التى تقوم على سلوك المرضى أثناء التحويل ، وإلى تلك التى تقوم على دراسة حياة العاديين والأسوياء

[(١) انظر فى هذا الموضوع الملاحظات القيمة التى ذكرها كارل يونج (١٩٠٩) فى فصل « أهمية الوالد فى أقدار الولد » فى كتاب مجموعة مقالات عن علم النفس التحليلى ص ١٥٦ من الترجمة الإنجليزية ١٩١٦ .]

من بني البشر، لواتانا من الإقدام ما يخول لنا أن نفرض أنه يوجد بالنفس حقاً "إجبار على التكرار"، يلزمها بإعادة الأمر الواحد مرة بعد مرة وأن هذا الإجبار أمر يعلو مبدأ اللذة ويفوقه قوة وسطوة. وإذا نحن سلمنا بهذا استطعنا أن ننسب إلى هذا الإجبار أحلام المصابين بعصاب الصدمة ، وأن نفسر على ضوئه محبة التكرار التى تلازم لعب الأطفال . على أنه ينبغى أن نلاحظ أنه من النادر أن نشاهد مظاهر إجبار التكرار فى شكل خالص نقى ، دون أن يختلط به وتتعاون وإياه بعض الدوافع الأخرى . ولقد ألمعنا من قبل فيما يتصل بلعب الأطفال إلى مختلف التفسيرات التى يمكن أن نفهم على ضوئها نشوء الإجبار ، ذلك لأنه يلوح أن إجبار التكرار يرتبط فى لعب الأطفال ارتباطاً وثيقاً بالإشباع العاجل لأحد الدوافع النظرية . ذلك الإشباع الذى يؤدى إلى المتعة والرضا . ومن الواضح أن المقاومة التى تصدر عن « الأنا » ، فى سبيل استمساكه الشديد بالكبت ، تسرف فى استغلال ظاهرات التحويل ؛ حتى لكأن إجبار التكرار ، الذى يحاول العلاج التحليلى أن ينتفع به ، قد وقع فى حبائل الأنا الذى يتعلق تعلقاً شديداً بمبدأ اللذة .

وعلى هذا المنوال يمكن أن نرى أن جانباً كبيراً مما يمكن أن يسمى "بإجبار الأقدار" — الذى أسلفنا بذكر بعض الأمثلة له — إنما هو أمر يتيسر فهمه وتفسيره على ضوء العقل تفسيراً يغنينا عن التماس أى دافع غيبى مجهول نستخدمه لفهم تلك الأقدار . ولعل أقل هذه الأحوال مدعاة للتشكك هى أحلام الصدمة ؛ غير أنا لو أعملنا الفكر لوجدنا أنفسنا وقد ألزمنا الحجة بأنه حتى فى الأحوال الأخرى لا يمكن أن نكتفى بتفسيرها على ضوء الدوافع المألوفة ، إذ يبقى بعد ذلك من الجوانب الخفية ما يبرر الفرض ، الذى ذهبنا إليه ، بوجود إجبار على التكرار . وهو أمر بدائى أولى يبدو أكثر

عراقة فى البدائية وأكثر تغلغلا فى الفطرة من مبدأ اللذة ، حتى لينتحى هذا جانباً كى يحل إجبار التكرار محله . على أنه إذا كان بالنفس حقاً إجبار على التكرار ، فما أشد شوقنا إلى بعض المعرفة عنه ، وإلى الوقوف على الوظائف التى تتصل به ، وإلى تفهم الظروف التى ينبثق فيها ، والإلمام بالعلاقة بينه وبين مبدأ اللذة – هذا المبدأ الذى كنا حتى الآن ننسب إليه السيطرة على مسير عمليات الاستثارة فى الحياة النفسية .

الفصل الرابع

إن ما سوف يتلو هذا إنما هو لون من النظر والتأمل ، قد يبدو مسرفاً بعيد الصلة عن الواقع ، يعترف به المرء أو يستخف به وفقاً للمنحى الذى ينحوه . ومهما يكن من أمر فإنه يمكن اعتبار ما سوف نقول به على أنه محاولة لتتبع فكرة من الأفكار ، كيما نرى إلى مَ يؤدى بنا هذا الشوق إلى إدراك المجهول .

يقوم النظر فى التحليل النفسى على حقيقة وقفنا عليها خلال البحث فى العمليات اللاشعورية ، ألا وهى أن الشعور لا يمكن أن يكون أعم خصائص العمليات النفسية ، بل إنه لا يعدو أن يكون وظيفة خاصة لهذه العمليات . فإذا استخدمنا المصطلحات الميتاسيكولوجية التى تواضع عليها التحليل النفسى ، قلنا إن الشعور وظيفة خاصة لمنظمة معينة يمكن أن نشير إليها بالحرف س[1] . ولما كان أهم ما يزودنا به الشعور هو إدراك المثيرات التى تأتى من العالم الخارجى ، وأحاسيس اللذة أو (عدم اللذة) التى لا يمكن أن تأتى إلا من داخل الجهاز النفسى ، حق لنا أن نفرض لمنظمة س – ى[2]

[(١) انظر الفصل السابع قسم «و» من كتاب سيجمند فرويد « تفسير الأحلام » (١٩٠٠) ومقاله عن « اللاشعورية » (١٩١٥) فى الجزء الرابع عن مجموعة المقالات ، الطبعة الإنجليزية (١٩٢٥) .]

[(٢) كان أول وصف أورده فرويد لمنظمة الإدراك فى القسم «ب» من الفصل السابع من «تفسير الأحلام». وقد بين فى مقال تال بعنوان « إضافة ميتاسيكولوجية إلى نظرية الأحلام » ، (١٩٠٦) أن منظمة الإدراك تتطابق ومنظمة الشعور .]

(= الشعور الإدراكى) وضعاً فى المكان . ولابد أن توجد هذه المنظمة على الحدود التى تفصل الخارج عن الداخل . كما أنها لابد أن تواجه العالم الخارجى ، ولابد أن تنطوى على كافة المنظمات النفسية الأخرى . غير أننا سرعان ما نرى أن كافة هذه التعريفات والفروض ليست بالأمر الجديد ، وأننا إذ نقول بها إنما نردد ما يقول به تشريح المخ ، ونتفق مع تعاليمه التى تذهب إلى أن "مركز" الشعور يقع فى لحاء المخ ، أى فى القشرة الخارجية التى تغلف العضو المركزى . على أن تشريح المخ لا يرى ما يدعو إلى التساؤل — من الناحية التشريحية — عن العلة فى وجود الشعور على سطح المخ ، بدلا من وجوده فى مكان آخر منه : كأن يكون مستقراً آمناً فى أعمق طبقاته وأبعدها عن السطح . غير أن التوفيق قد يواتينا نحن إذا اهتدينا إلى تفسير العلة فى وجود منظمة الشعور والإدراك حيث توجد .

ليس الشعور هو السمة الخاصة الوحيدة التى ننسبها إلى العمليات التى تجرى فى هذه المنظمة . فقد هدتنا المشاهدات التى أتاحتها لنا الخبرة بالتحليل النفسى إلى القول بأن كل عمليات الاستثارة التى تقع فى المنظمات الأخرى تخلّف وراءها آثاراً باقية تكون أساساً تقوم عليه الذاكرة . وليس لمثل هذه البقايا فى الذاكرة أية صلة بالشعور ، بل إن هذه البقايا كثيراً ما تبلغ غايتها من القوة والدوام إذا كانت العملية التى خلفتها وراءها عملية لم تصل ألبتة إلى الشعور . ومن العسير علينا أن نسلم — رغم ذلك — أن ما يبقى من الآثار فى منظمة الشعور والإدراك يصل فى القوة والدوام إلى ما تصل إليه تلك الآثار التى أسلفنا الإشارة إليها . ذلك لأن آثار الاستثارة إذا بقيت دواماً فى الشعور فسرعان ما يؤدى ذلك إلى الحد من قدرة هذه المنظمة على استقبال الاستثارات

الجديدة[1] . أما إذا كانت هذه الآثار لاشعورية فلسوف تواجهنا ، من الناحية الأخرى ، مشكلة لتفسير وجود عمليات لاشعورية فى منظمة كان قيامها بوظيفتها ، خلاف ذلك ، مصاحناً على الدوام لظاهرة الشعور . حتى لكأننا لم نفسر شيئاً ، ولم نكتسب شيئاً حين وضعنا الفرض القائل بأنه لابد من منظمة خاصة وظيفتها الشعور . ورغم أن هذه الحجة ليست شديدة الحسم ، إلا أنها تؤدى بنا إلى الظن بأن الوجود فى الشعور ، وأن ترك بعض البقايا فى الذاكرة عمليات لا يتفق حدوثها جنباً إلى جنب فى نفس المنظمة الواحدة . ومن ثم يمكن القول بأنه فيما يختص بمنظمة الشعور تكون عملية الاستثارة أمراً شعورياً ، لكنها لا تخلف وراءها هناك أية آثار باقية ، أما كافة آثار هذه العملية التى يمكن أن تصير أساساً للتذكر بعد ذلك فإنها تتأتى من انتقال الاستثارة إلى المنظمات الداخلية . ولقد أخذت بنفس الرأى فى الصورة التقريبية التى ضمنتها فى القسم النظرى من كتابى عن « تفسير الأحلام » . وينبغى أن نشير إلى أن كافة المصادر والنظريات الأخرى لا تكاد تهدينا إلى أى تفسير لمنشأ الشعور ؛ فإذا نحنا ذهبنا ، إذاً ، إلى القول بأن الشعور ينشأ حيث لا توجد بقايا للتذكر ، كان رأينا هذا جديراً بالنظر إذ هو يتميز ، على الأقل ، بأنه تفسير معين محدود المعالم .

فإذا كان هذا هو الحال ، فإن منظمة الشعور تتميز بخاصة معينة ، لاتشاركها فيها أية منظمة نفسية أخرى ، ألا وهى أن عمليات الاستثارة لا تخلف وراءها أى تغيير مقيم فى عناصر تلك المنظمة ، حتى ليمكن القول بأنها تتلاشى بظهورها فى الشعور . فإذا كان هناك استثناء لهذه القاعدة

[(١) إن ما سوف يلى يعتمد فى أساسه على آراء برويرفى القسم النظرى من كتاب « دراسات فى الهستريا » (تأليف بروير وفرويد سنة ١٨٩٥) .]

العامة ، كان من اللازم تفسيره على ضوء أحد العوامل التى تؤثر فى هذه المنظمة وحدها . ويمكن أن يكون هذا العامل ، الذى لا يوجد فى المنظمات الأخرى ، هو تعرض منظمة الشعور تعرضاً شديداً للعالم الخارجى واتصالها به اتصالا مباشراً .

فلنتصور الكائن الحى فى أبسط أشكاله الممكنة ، حويصلة (بروتوبلازمية) ، لم تتميز ، من مادة يمكن استثارتها . فى هذه الحال يتميز السطح الذى يواجه العالم الخارجى نتيجة لوجوده فى هـــذا المكان . ويصبح عنصراً وظيفته استقبال المثيرات . والواقع أن علم الأجنّة ، باعتباره علماً يستعيد تاريخ النشوء والتطور ، ليثبت لنا حقاً أن الجهاز العصبى المركزى ينشأ من البشرة الخارجية ؛ وأن المادة السنجابية فى لحاء المخ تُستمد من الطبقة السطحية الأولية للكائن الحى ، ويمكن أن تكون قد ورثت بعض الخصائص الأساسية لهذه الطبقة . ومن ثم كان من اليسير أن نتصور أنه نتيجة للفعل المتواصل للمثيرات الخارجية على سطح الحويصلة ، فإن جانباً من مادتها يتحول تحولا باقياً يؤدى إلى أن عمليات الاستثارة تجرى فيه على منوال يختلف عما تجرى عليه فى الطبقات العميقة من البروتوبلازم . وهكذا تتكون قشرة قد أنضجتها المثيرات إنضاجاً شديداً حتى ليصبح لها من الخصائص ما يهيئها خير تهيئة لاستقبال المثيرات ، وحتى ليصبح من المحال أن تتغير أى تغير أو تتعدل على أى وجه . فإذا طبقنا هذا على منظمة الشعور ، كان هذا يعنى أن عناصره لا يمكن أن يلحقها أى تعديل ثابت نتيجة لمرور الاستثارة ، ذلك لأن تلك العناصر تكون قد تعدلت من هذه الناحية إلى أقصى حد مستطاع ؛ على أنها تكون ، رغم ذلك ، قد اكتسبت القدرة على بعث الشعور . ويخطر لى فى هذا الصدد بعض الأفكار ، التى لا يمكن التحقق منها فى الوقت

الحاضر ، فيما يختص بطبيعة هذا التعديل وطبيعة عملية الاستثارة . من هذا أنه يمكن أن نذهب إلى أن المثير ، عند مروره من عنصر إلى آخر ، لابد أن يتغلب على بعض المقاومة ؛ وأن نقص المقاومة الذى يقع — نتيجة لذلك — هو الذى يترك أثراً باقياً للمثير أى يترك مسلكاً أو ممراًّ . ومن ثم ، لايوجد بالشعور مقاومة من هذا النوع الذى يقف دون مرور المثير من عضو إلى آخر . ويمكن على هذا المنوال أن نربط بين هذه الصورة التى نقترحها ، وبين تمييز « برويير » فى عناصر منظمات النفس بين الشحنة الرابضة الكامنة (أو المقيدة) وبين الشحنة المتحركة الطليقة ؛ ووفقاً لهذا لا يكون بمنظمة الشعور أية طاقة أو شحنة مقيدة ، بل طاقة قادرة على الانصراف والتنقل الحرّ الطليق . ورغم هذا ، فإنه يبدو أنه من الخير أن نتوخى الحرص والحذر فى الجزم بما يتصل بهذه الأمور ، وخاصة أن العلم لا يهدينا إلى أكثر من ذلك فى مرحلته الحاضرة . ومهما يكن من أمر ، فلقد أفدنا من هذا التفكير المجرد أن أمكننا إثبات نوع من العلاقة بين منشأ الشعور من ناحية وبين مركز الشعور والخصائص التى لابد من نسبتها إلى عمليات الاستثارة التى تجرى فيه من ناحية أخرى .

على أنه لا يزال لدينا جانب آخر من الحديث عن الحويصلة الحية (خلية البروتوبلازم) وعن لحائها الخارجى المستقل . يوجد هذا الجسيم الدقيق من المادة الحية معلقاً بين ثنايا عالم خارجى مفعم بأشد أنواع الطاقة بأساً وقوة ؛ ولو أنه لم يوجد لهذا الجسم درع يقيه لقتلته المثيرات التى تتدفق عليه من ذلك العالم الخارجى . وتكتسب تلك الحويصلة الحية درعها الواقى على هذا المنوال : يكف سطحها الخارجى عن أن يكون له ذلك التكوين الخاص بالمادة الحية، ويصبح إلى حد ما شبيهاً بالمادة الجامدة فيستطيع

بذلك أن يعمل كغلاف خاص أو عضو للوقاية يقف دون المثيرات الخارجية . ومن ثم تستطيع ألوان الطاقة التى تصدر عن العالم الخارجى أن تمر إلى الطبقات التى احتفظت بالحياة — تلك الطبقات التى تلى الطبقة الخارجية — وهى لا تحمل سوى جانب من شدتها الأصلية ؛ وتفرغ هذه الطبقات الداخلية ، وقد احتمت بذلك الدرع ، لاستقبال مقادير الاستثارة التى يؤذن لها بالوصول إليها . وعلى هذا تكون تضحية الطبقة الخارجية بحياتها قد أنقذت الطبقات العميقة من مثل هذا المصير — إلا إذا بلغت المثيرات من القوة حداً تستطيع معه أن تخترق ذلك الدرع الواقى . والحق أن الوقاية من المثيرات وظيفة تكاد أن تكون أكثر أهمية وأكبر خطراً لبقاء الكائن الحى من استقبال المثيرات . ويختزن الدرع الواقى طاقته الخاصة ، وينبغى عليه أن يعمل على أن يكون تحول الطاقة فيه ، مهما اتخذت من أشكال ، كفيلا بأن يقف فى وجه ما قد يدهمه من أفعال القوى الطاغية والطاقة الهائلة التى يزخر بها العالم الخارجى — تلك الأفعال التى تهدف إلى تعادل القوى ومن ثم إلى الفناء والسكون .

إن أهم غاية من استقبال المثيرات هى الكشف عن اتجاه القوى الخارجية وطبيعتها ، ويكفى لهذا الغرض أن تؤخذ أقساط صغيرة من العالم الخارجى ، وأن تنتقى منه أصغر المقادير . وفى الكائنات الحية العليا ، تلك التى قطعت شوطاً بعيداً فى سبيل التطور ، نجد أن اللحاء الخارجى المستقبل لدى الحويصلة الحية التى أسلفنا الحديث عنها قد انسحب منذ عهد بعيد إلى أعماق البدن الداخلية ، رغم أن بعض أجزائه قد بقيت على سطح الجسم مباشرة تحت الدرع العام الذى يحمى الكائن من المثيرات الخارجية . وهذه هى أعضاء الحس ، التى تتكون فى صميمها من أجهزة لاستقبال أنواع معينة من المؤثرات التى تفد إلى البدن ، لكنها تحتوى أيضاً على نظم أخرى

للوقاية من المقادير الشديدة من الاستثارة ولاستبعاد الأنواع التى لا تصلح منها . ومن خصائص أعضاء الحس أنها لا تتناول سوى كميات ضئيلة من الاستثارة الخارجية ، ولا تأخذ من العالم الخارجى سوى « عينات » صغيرة ، حتى يمكن تشبيهها « بالمحسات » فى الحيوانات الدنيا [كشوارب السمك مثلا] التى تسعى أبداً للاقتراب من العالم الخارجى وتعمل على تلمسه ، ثم تتراجع عنه وتعمل على الابتعاد .

فإذا ما وصلنا إلى هذا فسوف أحاول أن أعالج إلى حد ما أحد الموضوعات التى تستأهل دراسة شافية دقيقة . فإن بعض الكشوف التى اهتدينا إليها فى التحليل النفسى ، تخول لنا اليوم أن نعرض بالمناقشة لنظرية « كانْط »[1] التى تقول إن الزمان والمكان « أشكال ضرورية للفكر » . إذ نعرف أن العمليات النفسية اللاشعورية عمليات ، فى صميمها ، تخرج على الزمان ، أى لا صلة لها به على الإطلاق . ويعنى هذا أولا ، أنها ليست مرتبة ترتيباً زمنيًّا ، وأن مرور الزمن لا يغير منها أو يبدل فيها أى تغيير أو تبديل ، وأن فكرة الزمن منقطعة الصلة بها لا يمكن تطبيقها عليها . وهذه كلها خصائص سلبية لا يمكن تفهمها فى وضوح إلا إذا أخذنا فى المقارنة بينها وبين العمليات النفسية الشعورية . هذا إلى أنه يلوح أن فكرة الزمان

---

(١) كانط Kant (١٧٢٤ – ١٨٠٤) . لعله أكبر فلاسفة الألمان قاطبة . ويشير فرويد هنا إلى ما ذهب إليه كانط من أن المعرفة الانسانية تعتمد على الحس والتجربة . لكن الحواس لا تنقل إلى العقل سوى صور مختلفة مهوشة لابد من ترتيبها وتنظيمها ، وهذا هو ما يقوم به العقل مستعيناً بمبدأين أولين هما المكان والزمان . والزمان صورة أولية فى العقل ترجع إلى قوة الحساسية الباطنة بصفة مباشرة ، وإلى قوة الحساسية الظاهرة بصفة غير مباشرة ، ذلك لأن كل إحساس حدث نفسى له موضعه من الزمان ، والظواهر والأحوال النفسية لا وجود لها إلا فى الزمان .
وقد أقام كانط فلسفة سيطرت على التفكير الأوربى خلال القرن التاسع عشر إلى حد كبير . (المترجم)

المجردة عند الإنسان ، من الناحية الأخرى ، تستمد بأكملها من الطريقة التى تعمل وفقها منظمة الشعور والإدراك ، وتتأتى من إدراك هذه المنظمة وتفطنها لما يجرى فيها وكيف يجرى . ولقد يكون عمل هذه المنظمة وفق ذلك المنوال مما يهيئ درعاً آخر يقيها من المثيرات الخارجية . والحق أنى لأدرك أن هذه الآراء لا بد أن تبدو غامضة مسرفة فى التعقيد ، غير أنه يتحتم علىّ فى الوقت الحاضر أن أقتصر على تلك التلميحات التى ألمعت إليها[1] .

لقد بينا كيف أن للحويصلة الحية درعاً يعمل على حمايتها من المثيرات التى تفد من العالم الخارجى ؛ كما كنا قد أسلفنا أن الطبقة التى تلى هذا الدرع من الداخل لابد أن تتميز كى تصير عضواً لاستقبال المثيرات الخارجية . على أن هذه الطبقة الحساسة التى تصبح ، بعد ذلك ، منظمة الشعور تستقبل إلى جانب ذلك مثيرات من الداخل . فيكون لوجود هذه المنظمة بين الخارج والداخل ، وللفرق بين الشروط التى يجرى وفقها استقبال المثيرات فى كل من الحالتين ، أثر حاسم على عمل تلك المنظمة وعلى عمل الجهاز النفسى بأكمله . إذ أن لهذا الجهاز من الخارج درعاً يقيه من المثيرات ، فلا يكون لمقادير الاستثارة التى تطغى عليه سوى تأثير منقوص ؛ بينما ليس له مثل هذا الدرع من الداخل ؛ بل إن المثيرات التى تصعد من الطبقات العميقة تنفذ إلى تلك المنظمة نفاذاً مباشراً دون أن تنقص شدتها ، وذلك فيما يتصل بخصائص تلك المثيرات التى تؤدى إلى مشاعر اللذة وعدم اللذة ، بيد أن المثيرات التى تفد من الداخل — فى شدتها ، وفى بعض النواحى الكيفية الأخرى ، وقد يكون هذا فى مداها — تتواءم مع طريقة عمل هذه

[(١) شرح فرويد هذه النقطة شرحاً تفصيلياً بعد ذلك فى مقال بعنوان « الورقة السحرية » ١٩٢٥ .]

المنظمة أكثر من المثيرات التى تتدفق من العالم الخارجى . ويترتب على هذا نتيجتان لازمتان : الأولى هى أن مشاعر اللذة وعدم اللذة (وهى الدلالة التى تشير إلى ما يجرى فى داخل الجهاز) تطغى على كافة المثيرات الخارجية . والثانية أن الكائن الحى يتخذ أسلوباً خاصاً فى التصرف بإزاء المثيرات الداخلية إذا أدت إلى زيادة كبيرة فى عدم اللذة : بأن ينزع الكائن إلى تناول تلك المثيرات ، كما لو كانت غير وافدة من الداخل ، بل من الخارج ، حتى يصير من الممكن استخدام الدرع الواقى كوسيلة للدفاع فى وجه هذه المثيرات الداخلية . وهذا هو أصل « الإسقاط »[1] ، الذى يقيض له أن يلعب دوراً كبيراً فى تعليل عمليات النفس المرضية .

يخيل إلىّ أن هذه الاعتبارات الأخيرة قد يسرت علينا أن نفهم السر فى تفوق مبدأ اللذة ؛ غير أنها لم تلق بعد أى ضوء على الحالات التى تناقض هذا التفوق . فلنتقدم إذن خطوة أخرى . نحن نعرف أن « الصدمة » هى ما يتأتى من مثيرات العالم الخارجى التى تبلغ من القوة حداً يؤدى بها إلى اختراق الدرع الواقى : ويبدو لى أن الفكرة عن الصدمة لابد أن تتضمن بالضرورة علاقتها بالصدع الذى لحق تلك الوسيلة من وسائل الدفاع التى بقيت ناجعة إلى أن وقعت الصدمة . مثل تلك الصدمة الخارجية حادث

---

(١) الإسقاط (Projection) عملية لاشعورية : هى وسيلة من الوسائل التى يلجأ إليها «الأنا» كى يتخلص من المشاعر والمثيرات التى تؤلم النفس ، بأن ينسب صدورها إلى غيره من الناس أو الأشياء . وتلك ظاهرة كثيراً ما نشاهدها فى الحياة اليومية ، مثلها أن يثور بنفس أحد الناس ميل إلى العدوان فيتهم غيره بالشروع فيه . وعملية الإسقاط تلعب دوراً كبيراً فى بعض الأمراض النفسية ، وفى بعض الأمراض العقلية على الأخص ، منها ما هو معروف من هذيان الاضطهاد عند المصابين بمرض البارانويا ، وهو اضطهاد ليس له فى العالم الخارجى ما يبرره ، إنما يقوم أصلا على ما تنطوى عليه نفس المريض من ميل إلى الأذى ورغبة فى العدوان ينسبها إلى غيره دون أن يفطن إلى وجودها فى أعماق نفسه . (المترجم) .

لا بد أن يثير اضطراباً واسعاً فى عمل الطاقة التى ينطوى عليها الكائن الحى ، وأن يحرك كافة أشكال الدفاع الممكنة ؛ ولابد ، فى عين الوقت ، أن يتعطل فعل مبدأ اللذة تعطلا مؤقتاً ، فإذا بالجهاز النفسى وقد غمرته مقادير ضخمة من المثيرات لا قبل له بمنعها ، وإذا به يواجه مشكلة أخرى — هى مشكلة السيطرة على هذا الفيض من المؤثرات التى تدهمه والعمل على تقييدها ، بالمعنى النفسى ، حتى يمكن التخفف منها بعد ذلك .

ومن المحتمل أن ما يلازم الألم البدنى من عدم اللذة هو نتيجة لتهتك الدرع الواقى فى منطقة محدودة . إذ يتبع هذا أن يتدفق تيار متواصل من المثيرات ، من خلال هذه الثغرة ، مباشرة إلى الجهاز النفسى المركزى ، وهذا أمر لا يقع عادة إلا من داخل الجهاز وحده[1] . فأى رد ينتظر أن تقوم به النفس على هذا الغزو ؟ تُستدعى كل أشكال الطاقة من كافة النواحى كى تهيئ أكبر ما يمكن من الشحنة فيما يحيط بتلك الثغرة . وهكذا تقوم « شحنة مضادة » شديدة القوة ، تضعف فى سبيل تجمعها كافة المنظمات النفسية الأخرى . ويترتب على هذا أن يتوقف ما عدا ذلك من الوظائف النفسية أو ينقص إلى حد كبير . فلنحاول أن نستخلص مغزى مثل هذه الأمثلة التى أشرنا إليها ، وأن نستخدمها كأساس لما نحن بسبيله من التأملات الميتاسيكولوجية . من تلك الحالة التى نحن بصددها يمكن أن نستنتج إذن أن المنظمة المفعمة بالشحنة يمكن أن تستقبل قدراً إضافياً من الطاقة التى تقبل عليها وأن تحولها إلى شحنة رابضة كامنة ، أى أن « تقيدها» تقييداً نفسياً . ويبدو أنه كلما زادت الشحنة الرابضة التى تحتويها المنظمة زادت قدرتها على التقييد ؛

[(١) انظر مقال فرويد (١٩١٥) عن « الغرائز وتقلباتها » . الجزء الرابع من مجموعة المقالات الطبعة الانجليزية ١٩٢٥ .]

وعلى العكس من ذلك ، إذن ، كلما نقصت شحنتها ، ضعفت قدرتها على تحمل الطاقة التى تقبل عليها وزاد عنف النتائج التى تترتب على اختراق الدرع الواقى ضد المثيرات . ولا يمكن الاعتراض على هذا الرأى بأنه من الأيسر أن نفسر زيادة الشحنة حول الثغرة بأنها نتيجة مباشرة لتدفق أكداس المثيرات منها . ذلك لأنه لو كان هذا هو الحال ، لاقتصر الأمر على أن يظفر الجهاز النفسى بزيادة فى الشحنة ، ولما اهتدينا إلى تفسير لما يؤدى إليه الألم من شلل أو توقف ، ومن إضعاف لكافة المنظمات الأخرى . ولا يعيب تفسيرنا هذا ما يؤدى إليه الألم من ظاهرات شديدة العنف تهدف إلى التخفف منه ، ذلك لأنها تقع على منوال انعكاسى — أى أنها تقع دون تدخل الجهاز النفسى . إن هذا الغموض والإبهام الذى تتسم به هذه الآراء — التى نطلق عليها اسم الآراء الميتاسيكولوجية — يرجع بالطبع إلى أننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة عملية الاستثارة التى تقع فى عناصر المنظمات النفسية ، وإلى أننا لا نجد ما يبرر تكوين أى فرض علمى عن هذا الموضوع . ومن ثم كنا نستخدم على الدوام طرفاً مجهولا ، كان لابد لنا من إدماجه فى كل دليل أو قضية جديدة .قد يكون هناك ما يخول لنا أن نذهب إلى أن عملية الاستثارة يمكن أن تجرى إذا وجدت من ألوان الطاقة ما يختلف بعضه عن بعض من حيث الكم ؛ كما يبدو أيضاً أنه من المحتمل أن لعملية الاستثارة أكثر من كيف واحد (من ناحية المدى مثلا) ، ولقد بحثنا فى رأى جديد هو الفرض الذى قال به « بروير » بأن للمنظمات النفسية أو عناصرها شكلين من الشحنة : شحنة حرة طليقة تعمل على الانصراف ، وشحنة رابضة كامنة . ومن هنا يمكن أن نذهب إلى أن « تقييد » الطاقة التى تتدفق على الجهاز النفسى يكون بتحويلها من الحالة الطليقة إلى الحالة الكامنة .

ويخيل إلى أنه لا بأس من اعتبار عصاب الصدمة المألوف نتيجة لثغرة كبيرة أصابت الدرع الواقى من المثيرات . ويبدو أن هذا القول يؤيد النظرية الساذجة القديمة عن الصدمة ، التى تناقض النظرية الحديثة وما بها من مزاعم سيكولوجية رنانة تنسب علية المرض لا لآثار العنف الآلى بل للفزع الذى يلازمها ولخشية الإنسان على حياته . ورغم هذا فإن التوفيق بين هذين الرأيين المتناقضين ليس عسيراً ؛ وليس رأى التحليل النفسى فى عصاب الصدمة متفقاً على أى وجه من الوجوه بنظرية الصدمة فى شكلها الساذج . ذلك لأن الرأى الأخير يذهب إلى أن صميم الصدمة هو الهدم المباشر لأنسجة الخلايا ، إن لم يكن للتكوين التشريحى الدقيق لعناصر الجهاز العصبى ، بينما نحن نعمل على تفهم ما يقع بالنفس إذا ما انكسر درعها الذى يقف فى وجه المثيرات وما يتبع ذلك من المشاكل والاضطرابات . على أننا ندرك أيضاً ما لعنصر الفزع من أهمية . فهو ينشأ من عدم التأهب على أى وجه من الوجوه لمقابلة الجزع ، وما يؤدى إليه هذا من زيادة فى شحنة المنظمات التى تكون أول من يستقبل المثيرات . ذلك لأن ضعف شحنة هذه المنظمات لا يهيئها لتقييد مقادير الاستثارة التى تقبل عليها ، ومن ثم تترتب على ذلك النتائج التى يؤدى إليها اختراق الدرع الخارجى الواقى . ومن هذا نرى ، إذاً ، أن التأهب لمقابلة الجزع وأن زيادة الشحنة فى المنظمات المستقبلة هو آخر خط من خطوط الدفاع التى تقوم فى وجه المثيرات الخارجية . وفى كثير من الصدمات يكون الفرق بين المنظمات التى لم تتأهب وتلك التى أحسنت التأهب بما زاد فى شحنتها عاملا حاسماً فى تحديد ما ينتج عن الصدمة ؛ رغم أنه إذا زادت قوة الصدمة عن حد معين لم يكن لهذا العامل أثر هام . وتتحقق الرغبات والأمانى ، كما نعرف ، عن طريق (الهلوسة) والتوهم أثناء الأحلام ،

حتى صار هذا هو وظيفة الحلم تحت سيطرة مبدأ اللذة . لكنه ليس مما يخضع لذلك المبدأ أن أحلام المرضى الذين يصابون بعصاب الصدمة تعود بهم عوداً منتظماً إلى المواقف التى نزلت بهم فيها الصدمة من قبل . حتى نيمكن أن نذهب إلى أن الأحلام فى هذه الأحوال تقوم بمهمة أخرى ، لابد من إتمامها حتى قبل أن يشرع مبدأ اللذة فى فرض سيطرته وسيادته . ذلك لأن هذه الأحلام تعمل على الارتداد بصاحبها إلى حيث تستطيع التغلب على المثير بأن تبتعث الجزع الذى كان القضاء عليه هو السبب فى وقوع عصاب الصدمة[1] .وبهذا نهتدى بما قمنا به من دراسة عصاب الصدمة إلى وظيفة من وظائف الجهاز النفسى هى ، رغم أنها لا تتعارض ومبدأ اللذة ، مستقلة عنه، ويبدو أنها أكثر تغلغلا فى الفطرة من محاولة الحصول على اللذة والعمل على تجنب الألم .

إذا وصلنا إلى هذا ، لاح أنه ينبغى التسليم لأول مرة باستثناء للقول بأن الأحلام وظيفتها تحقيق الرغبات والشهوات . وليست أحلام الجزع ، كما كررت تبيانه بالتفصيل ، استثناء لهذه القاعدة . حالها فى ذلك حال أحلام العقاب لأنها لا تفعل أكثر من إحلال العقاب المناسب محل الشهوات المحرمة ؛ أى أنها تحقق الرغبة فى الشعور بالذنب وهذا هو رد الفعل الذى يعقب النزعات المنبوذة . غير أنه من المحال أن نعتبر أن أحلام المصابين بعصاب الصدمة التى أسلفنا الحديث عنها تهدف إلى تحقيق الرغبات والشهوات ، حذوها فى ذلك حذو الأحلام التى تخطر للناس أثناء إجراء التحليل النفسى عليهم فتثير فيهم ذكريات الصدمات النفسية التى نزلت بهم أثناء الطفولة .

[(١) يقرر فرويد بهذا ضمناً أن حدوث الجزع هو السبيل لتكوين التأهب لمقابلة ما يفد بعد ذلك من ألوان الجزع الأخرى .]

بل الأرجح أن أحلام هؤلاء وأولئك تطرأ لهم استجابة لإجبار التكرار ، رغم أنه فى حالة التحليل يستند هذا الإجبار إلى الرغبة فى العثور على ما كُبت وعفى عليه النسيان . وهكذا يبدو لنا أن وظيفة الأحلام الأصلية ، التى تقوم على إبعاد الدوافع التى قد تقطع النوم ، ليست تحقيق الرغبات والشهوات التى تثير النزعات المزعجة . ذلك لأن الأحـلام لا يمكن أن تقوم بهذه الوظيفة إلا إذا ارتضت الحياة النفسية بأجمعها ما لمبدأ اللذة من سيطرة . فإذا كان هناك ، « ما هو فوق مبدأ اللذة » ؛ كان من اللازم أن نسلم بأنه كانت هناك فترة قبل أن يكون هدف الأحلام هو تحقيق الرغبات والشهوات . ولا يتضمن هذا إنكاراً لوظيفتها الجديدة . لكنه إذا كان هناك شذوذ فى هذه القاعدة العامة فإن هذا يكون مدعاة أخرى للتساؤل . ألا يمكن أن تكون هذه الأحلام خاضعة لإجبار التكرار حتى تستطيع أن تقوم بتقييد نتائج الصدمة وربطها ؟ ألا يمكن أن تطرأ مثل هذه الأحلام خارج التحليل النفسى ؟ والجواب عن هذا التساؤل ، فى كلا الحالين ، لا يمكن أن يكون بغير الإيجاب .

لقد ذهبت فى كتاب آخر[1] إلى أن عصاب الحرب ، (إذا استخدمنا هذا المصطلح كى يعنى شيئاً أكثر من مجرد الإشارة إلى الظروف التى وقع فيها المرض) ، يمكن أن تكون لوناً من عصاب الصدمة قد هيأ السبيل له ما فى الأنا من صراع . ويتضح ما أشرت إليه سلفاً (ص ١٠) ، من أن الإصابة البدنية الخطيرة التى تصاحب الصدمة تنقص من احتمال حدوث المرض النفسى ، إذا ذكر القارئ حقيقتين أثبتتهما أبحاث التحليل النفسى :

[(١) كتاب «عصاب الحرب» – انظر الترجمة الإنجليزية لمقدمة هذا الكتاب ، منشورة فى الجزء الخامس من مجموعة المقالات ١٩٥٠]

الأولى منهما أن الاهتزازات الآلية لابد أن تعتبر أحد مصادر الاستثارة الجنسية[1] . والثانية أن الحميات والأمراض الموجعة تؤثر ، أثناء الإصابة بها ، أثراً كبيراً على توزيع اللبيدو[2] . ومن ثم تؤدى الصدمة بما تسببه من عنف آلى ، من ناحية ، إلى إطلاق كمية من الاستثارة الجنسية ، يكون لها وقع الصدمة نظراً لعدم التأهب لمقابلة الجزع ؛ لكن الإصابة البدنية المصاحبة ، من الناحية الأخرى تقيد هذا الإفراط فى الاستثارة بما تتطلبه من زيادة فى الشحنة النرجسية للعضو المصاب[3] . ومن المعروف الواضح أيضاً ، رغم أن نظرية اللبيدو لم تنتفع بهذا كما ينبغى الانتفاع ، أن الاضطرابات الخطيرة التى تقع فى توزيع اللبيدو مثل مرض الملاخوليا يمكن أن تختفى مؤقتاً إذا لحق صاحبها مرض بدنى ، بل إن العته المبكر فى أقصى درجاته قد تذهب أعراضه وتختفى اختفاء مؤقتاً فى مثل هذه الظروف .

[(١) انظر ما أوردته عن ذلك فى كتاب آخر « الميول الجنسية » ١٩٠٥ . عن أثر الأرجحة والسفر بالسكك الحديدية . (ترجمة ١٩٤٩ الإنجليزية ص ٧٩)]

(٢) اللبيدو Libido هو الطاقة التى تصدر عن الغريزة الجنسية بأوسع معانيها .

(٣) انظر مقال فرويد عن «النرجسية – تمهيد» ١٩١٤ – المنشور بالإنجليزية فى الجزء الثانى من مجموعة المقالات ١٩٢٥ .

والنرجسية Narcissism اصطلاح مشتق من الأسطورة الإغريقية عن «نرجس» الذى هام بنفسه فطال نظره إلى مياه البحيرة معجباً بجماله حتى حولته الآلهة إلى الزهرة المعروفة بهذا الاسم . ويقصد بها فى التحليل النفسى تلك المرحلة التى تتميز بميل الطفل إلى اتخاذ ذاته موضوعاً لعشقه ، وهو ميل يشتد فى الحالات المرضية وخاصة فى الأمراض العقلية . (المترجم) .

الفصل الخامس

إن ما يقرره الواقع من أن لحاء المخ الذى يستقبل المثيرات ليس له ما يحميه ضد الاستثارة التى تأتى إليه من الداخل لابد أن يؤدى إلى أن انتقال هذه المثيرات يطغى من حيث أهميته لاقتصادية ، وكثيراً ما يؤدى إلى الاضطرابات الاقتصادية التى تشبه الأمراض النفسية التى تعقب الصدمات . وأغزر الينابيع لهذه الاستثارة الداخلية هو ما يعرف باسم غرائز الكائن الحى ، التى تمثل كافة القوى التى تصدر من داخل الجسم وتنتقل إلى الجهاز النفسى ، تلك الغرائز التى تعتبر فى آن واحد أهم عنصر فى البحوث النفسية وأكثرها غموضاً .

وقد لا يعتبر من الإسراف أن يخيل إلينا أن الدوافع التى تصدر عن الغرائز لا تنتمى إلى طراز العمليات العصبية المقيَّدة بل إلى طراز العمليات الطلقية التى تتطلب النفاذ وتهدف إلى الانصراف . وخير ما نعرفه من جوانب هذه العمليات هو ما نستمده من دراستنا لوظيفة الأحلام ، فقد كشفنا هناك أن العمليات التى تجرى فى النظم اللاشعورية تختلف اختلافاً أساسياً عن تلك التى تجرى فى النظم الشعوريه أو ما قبل الشعورية ، ذلك أنه يتيسر فى اللاشعور أن تنتقل الشحنة أو تستبدل أو تتكدس بأكملها . على أن مثل هذه التغيرات إذا ما وقعت فى نطاق ما قبل الشعور لم تؤد إلا إلى نتائج شائهة منقوصة . ويفسر لنا هذا الخصائصَ المألوفة التى يتميز بها المضمون

الظاهر للأحلام بعد أن تكون البقايا ما قبل الشعورية لأحداث النهار السابق قد تشكلت وفق القوانين التى تسيطر على اللاشعور . ولقد أطلقتُ على العمليات التى تجرى فى اللاشعور اسم العمليات النفسية « الأولية » كى نفرق بينها وبين العمليات « الثانوية » التى تسود حياة الصحو السوية . ولما كانت كافة الدوافع الغريزية تعتمد فى أساسها على النظم اللاشعورية فليس فى القول بأنها تخضع للعملية الأولية أى شىء جديد ، هذا إلى أنه ليس من العسير من ناحية أخرى أن نرى أن العملية الأولية هى ما يدعوه « بروير » بالشحنة الطلقية المتنقلة وأن العملية الثانوية هى التغيرات التى تصاحب الشحنة المقيدة أو الثابتة[1] . فإذا كان الأمر كذلك كان من الواجب على الطبقات العليا من الجهاز النفسى أن تضبط الاستثارة الغريزية التى تخضع للعمليات الأولية . فإذا هى فشلت فى القيام بهذا الربط أدى ذلك إلى اضطراب يشبه المرض النفسى الذى يعقب الصدمة ، ولا يمكن ، إلا بعد أن يتم هذا التقييد ، أن تسود سيطرة مبدأ اللذة (ومبدأ الواقع الذى هو شكل معدل منه) . وإلى أن يتم ذلك يكون واجب الجهاز النفسى الآخر ، ألا وهو السيطرة على المثيرات أو تقييدها ، أهم الواجبات التى لا تتعارض على أى وجه من الوجوه ومبدأ اللذة ، بل هو مستقل عنه وغير محتفل به إلى حد ما .

وإن المظاهر التى تبدو فى إجبار التكرار [الذى أسلفنا وصفه كما يجرى فى الحياة النفسية للطفولة المبكرة ، حذوه فى ذلك حذو ما نراه يقع فى العلاج بالتحليل النفسى] لتدل دلالة قوية على أنه أمر غريزى ، وعلى أنه لو

[(١) انظر كتاب « تفسير الأحلام » (١٩٠٠) الفصل السابع .]

تعارض ومبدأ اللذة لكان فى هذا دلالة على أن هناك قوة أخرى تدفع إليه . ففى لعب الأطفال لاح لنا أنه يمكن أن نرى أن الأطفال يكررون الخبرات المؤلمة لأنهم بهذا يستطيعون السيطرة عليها إذا كان الواحد منهم فاعلا ، أكثر من سيطرته عليها إن هو اقتصر على أن يكون منفعلا . ويبدو لنا أن كل تكرار جديد يقوى السيطرة التى يسعى الصغير نحوها . هذا إلى أن الأطفال لا يشبعون من تكرار خبراتهم اللذيذة ولا يتهاونون فى إلحاحهم على وجوب تكرارها تكراراً دقيقاً . لكن هذه الخاصة تختفى بعد ذلك ، فإن النكتة إذا أعيد سماعها لا تكاد تخلف أثراً ، والقطعة المسرحية لا تترك وراءها فى المرة الثانية مثل الأثر العميق الذى تركته فى المرة الأولى ؛ ويكاد ألا يكون ممكناً أن تغرى شخصاً بالغاً استمتع كل المتعة بقراءة أحد الكتب أن يعيد قراءته توًّا بعد القراءة الأولى . ذلك لأن الجدة شرط لازم أبداً للاستمتاع ، غير أن الصغار لا يكلّون أبداً من سؤال الكبير أن يعيد لعبة كان قد أرشدهم إليها أو لعبها معهم وهم لا يتركونه وشأنه إلا إذا كان قد أنهكه الإعياء وعجز عن مواصلة اللعب . وإذا أنت كنت قد أخبرت طفلا بحكاية لطيفة فإنه يصر على سماعها منك مرة بعد مرة ، مفضلا إياها على أية حكاية جديدة ؛ ثم هو يشترط اشتراطاً لا هوادة فيه أن الإعادة لا بد أن تكون دقيقة مضبوطة ، فإذا اقترف الحاكى جريمة التغيير قام الصغير بإصلاح ما اقترفه الكبير — الذى قد يكون الدافع إلى اقترافه جريمة التغيير رغبة فى الحصول على رضا الصغير . ولا شىء فى هذا يناقض مبدأ اللذة ؛ فمن الواضح أن التكرار ، أى إعادة الخبرة بالشىء الواحد ، هو فى نفسه مصدر للمتعة واللذة . لكن الحال مع الشخص أثناء إجراء التحليل ، يكون على النقيض من ذلك ، إذ أن الإجبار على إعادة الأحداث التى وقعت له أثناء

الطفولة فى التحويل[1] أمر يخالف مبدأ اللذة على كل وجه من الوجوه . فالمريض أثناء التحليل يسلك سلوكاً طفلياً خالصاً ، وهكذا يبين لنا أن الذكريات المكبوتة عن خبراته المبكرة لا توجد بنفسه فى حالة مقيدة ، وأنها حقاً لا يمكن — من ناحية ما — أن تخضع لأسلوب العملية الثانوية . وبالإضافة إلى هذا فإن هذه الذكريات لما كانت غير مقيدة كانت لها القدرة — إذا ما اختلطت ببقايا اليوم السالف — على تكوين الأخيلة المرغوبة التى تظهر فى الأحلام . وهذا الإجبار على التكرار كثيراً ما يكون عقبة فى وجه العلاج بالتحليل ، إذا ما عملنا فى نهاية العلاج على دفع المريض إلى الانقطاع تماماً عن الطبيب . ويمكن من هذا أن نذهب إلى أن خشية غير العارفين بالتحليل من الإقدام عليه — وهى خشيتهم من أن يستيقظ فى نفوسهم ما يظنون أنه من الخير أن يبقى نائماً — إنما تعود فى صميمها إلى الخوف من ظهور هذا الإجبار على التكرار ، ذلك الإجبار الشديد الذى يرتاع منه المريض كأنه الشيطان الطاغية .

لكن ما هى طبيعة العلاقة التى تربط الميول الغريزية بالإجبار على التكرار ؟ إذا ما وصلنا إلى هذه النقطة لم نستطع أن نتحاشى الظن بأنا قد عثرنا على السبيل الذى يدل على وجود خاصة عامة شاملة لكافة الغرائز ، بل لعلها تشمل الحياة العضوية بصفة عامة ، وهى خاصة لم نفطن إليها حتى الآن فطنة واضحة ، أو على الأقل لم نهتم بها كما ينبغى الاهتمام . ذلك أنه يبدو أن الغريزة هى إجبار فى صميم الحياة العضوية لإرجاع حالة سابقة اضطر الكائن الحى إلى التخلص منها تحت ضغط بعض القوى الخارجية القاهرة ؛ أو هى بعبارة أخرى نوع من المرونة العضوية ، أو بمعنى آخر ، تعبير عن

---

(١) للوقوف على إيضاح شاف لمعنى « التحويل » نرجو الرجوع إلى كتاب فرويد الممتع «مقدمة فى التحليل النفسى » ص ١١٢ — ١١٨ . دار المعارف ١٩٥٠ (المترجم) .

« القصور الذاتى »[١] الموجود فى الحياة العضوية .

يبدو لنا هذا الرأى فى الغرائز غريباً ، لأنا قد تعودنا أن نعتبر الغريزة عاملا يدفع إلى التغير والنمو ؛ بينما نحن نُدعى الآن إلى أن نتعرف فى الغرائز ما يناقض ذلك تمام المناقضة — أى أن نرى فيها تعبيراً عن طبيعة المحافظة التى فطرت عليها الكائنات الحية . لكنه سرعان ما يحضرنا من الناحية الأخرى أمثلة من عالم الحيوان ، يبدو أنها تؤيد الرأى القائل بحتمية الغرائز من الناحية التاريخية . فهناك أنواع من السمك ، على سبيل المثال ، تبذل جهداً كبيراً فى سبيل الهجرة فى موسم التوالد والإفراخ كى تضع بيضها فى مياه بحار أو أنهار خاصة تبعد بعداً شاسعاً عن المناطق التى تعيش بها . ويذهب كثير من علماء الأحياء إلى أن ما تقوم به تلك الأسماك إن هو إلا سعىٌ نحو الأمكنة التى كانت تقيم فيها أسلافها من قبل ، تلك الأمكنة التى اضطرت إلى استبدال غيرها بها على مر الأزمان والعصور . ويذهب أولئك العلماء إلى أن هذا التفسير يصدق أيضاً على هجرة الطيور فى مواسم معينة من بلاد إلى بلاد أخرى بعيدة . غير أنا سرعان ما نستغنى عن ضرورة البحث تلمساً لأمثلة أخرى إذا ذكرنا أن أقوى البراهين على وجود إجبار عضوى للتكرار يوجد فى ظاهرات الوراثة وحقائق علم الأجنة . إذ نرى كيف تلزم جرثومة الحيوان الحى مجرى نموها على أن تستعيد (ولو فى صورة عابرة موجزة) مقوِّمات كافة الأشكال التى نشأت منها بدلا من أن تيمم سريعاً من أقصر السبل نحو الشكل النهائى الذى كتب عليها أن تتخذه . ولا يمكن أن نرد هذا السلوك إلى أسباب آلية رداً ضئيلا ، ومن ثم لا يمكن أن نهمل التفسير التاريخى .

---

(١) « القصور الذاتى » بمعناه العام هو ميل الجسم إلى البقاء على حالة واحدة من الحركة أو السكون ، ويستعار هذا المصطلح من علوم المادة كى يدل فى علوم الحياة والنفس على الميل إلى البقاء على حالة واحدة أى إلى المثابرة والتواصل . (المترجم) .

وعلى نفس المنوال نجد أن القدرة على الاستعاضة عن عضو مفقود بإنماء عضو جديد يشبه المفقود تمام الشبه ، هى قدرة تنتشر بين الحيوانات الدنيا وما يعلوها بكثير .

على أنه سوف يوجه إلينا هنا اعتراض واضح هو أنه قد يكون هناك فى الواقع بالإضافة إلى الغرائز المحافظة التى ترغم على التكرار ، غرائز أخرى تدفع إلى الأمام نحو الرقى والتقدم ونحو إنتاج أشكال جديدة ، وهذا اعتراض لا ينبغى أن نغفله ، بل سوف نبحث فيه فى مرحلة مقبلة من هذا الكتاب .

على أنه مما يستهوينا الآن أن نتابع البحث فى الفرض القائل ، بأن كافة الغرائز تنحو نحو إحياء حالة سابقة ، إلى نهايته المنطقية . ولقد تبدو على النتيجة مسحة من الصوفية أو الإغراق فى التعمق ، لكننا نشعر بأننا أبرياء تمام البراءة من هذا ومن ذاك ؛ ذلك لأنا نسعى فقط وراء نتائج البحث العلمى وما يترتب عليها من الآراء ، ولا نود أن نلتمس فى تلك النتائج إلا أكثر ما يمكن التماسه فيها من الوضوح واليقين[١] .

إذا فرضنا إذاً أن كافة الغرائز العضوية تتسم بالمحافظة ، وأن الكائنات الحية قد اكتسبتها خلال تاريخ تطورها القديم ، وأنها تنزع إلى إعادة الأحوال السابقة لتلك الكائنات ، لم يبق لنا إلا أن نرى أن ظاهرات التطور العضوى إنما تعود إلى مؤثرات خارجية يضطرب لها الكائن وتحيد به عن نزعته نحو الجمود . أى أن الكائن الحى الأولى لم يكن لديه منذ مبدأ وجوده أى ميل إلى التغير ، وأنه — لو بقيت الظروف على حالها — لما قام إلا بتكرار المنوال الذى سارت عليه حياته . فإذا تابعنا البحث إلى نهايته وجدنا أن ما قد

[(١) لا ينبغى أن يغفل القارىء أن ما سوف يلى إنما هو متابعة إحدى الفكر إلى نهايتها. لكننا فيما بعد، إذا ما وصلنا إلى البحث فى الغرائز الجنسية ، وجدنا ما يكفى لتصحيح تلك الفكرة والحد منها .]

أثر على تطور الكائنات الحية إنما هو تاريخ الكرة الأرضية التى نعيش عليها وتاريخ علاقتها بالشمس . وهكذا تقبل الغرائز العضوية المحافظة كل تغير تفرضه ظروف الحياة على الكائن الحى وتختزنه كى تعيد تكراره ، ومن ثم تتخذ تلك الغرائز مظهراً خداعاً ، إذ يلوح أنها قوى تنزع نحو التغير والرقى ، بينما هى فى الواقع لا تسعى إلا نحو الوصول إلى هدف قديم ، متخذة لذلك ما تقادم من السبل أو ما استجد . زد على ذلك ، أنه يمكن أن نحدد هذه الغاية النهائية التى يسعى إليها كل كائن حى . ذلك أنه مما يناقض طبيعة الغرائز المحافظة أن يكون هدف الحياة حالة لم تعرض البتة للكائن ، من قبل ؛ بل على النقيض من ذلك ينبغى أن تكون حالة قديمة سابقة ، حالة مبدئية خلفها الكائن الحى وراءه فى زمن ما ، وهو يسعى جاهداً نحو العودة إليها سالكاً لهذا سبلا ملتوية تدفعه إليها خصائص تطوره . فإذا قبلنا الحقيقة التى لا استثناء لها : وهى أن كل حى يموت نتيجة لأسباب داخلية — أى يعود إلى حالة المادة الجامدة — فإنه يكون لزاماً علينا أن نقول : « إن الموت غاية كل حى » ؛ وإذا ألقينا بنظرة إلى الوراء قلنا : « إن الميت قد وجد قبل الحى » .

ظهرت خصائص الحياة أول ما ظهرت فى المادة الجامدة بفعل قوة تخفى علينا طبيعتها . ولعل ظهور الحياة كان عملية تشبه فى أسلوبها تلك العملية التى أدت فيما بعد إلى نشوء الشعور فى طبقة معينة من المادة الحية . وأخذ التوتر ، الذى نشأ عندئذ فيما كان حتى ذلك الحين مادة جامدة ، يعمل على استرجاع التوازن ؛ ومن ثم كانت أول الغرائز التى ظهرت : هى الغريزة التى تدفع للعودة إلى المادة الجامدة . وكان من اليسير ، فى ذلك العهد ، على المادة الحية أن تموت ؛ فالأغلب أن مدى حياتها كان قصيراً ، وأن

التكوين الكيماوى هو الذى كان يحدد مجرى هذه الحياة الغضة . ولعله قد انقضى عهد طويل كانت تخلق فيه المادة الحية ثم سرعان ما كانت تموت . حتى تغيرت الظروف الخارجية الحاسمة تغيراً كان من شأنه أن يلزم المادة التى كانت لاتزال حية بالانحراف انحرافاً واسعاً عن مجرى الحياة الأول ، وأن تلتوى بها السبل وتتعقد كثيراً قبل أن تصل إلى غايتها ، وهى الموت . هذه السبل الملتوية إلى الموت ، التى مازالت تستمسك بها الغرائز المحافظة استمساكاً وثيقاً ، إنما هى الصورة التى تبدو بها لنا اليوم ظاهرات الحياة . ذلك لأنا إذا سلمنا تسليما تاماً بأن طبيعة الغرائز إنما هى المحافظة واستبقاء القديم ، فإنه يكون من المحال أن نذهب إلى غير ذلك لتفسير منشأ الحياة وغايتها .

إذا بدت النتائج التى وصلنا إليها غريبة محيرة لم يلح لنا أقل غرابة ما سوف نقول به فيما يختص بالمجموعات العظمى للغرائز التى تنطوى عليها ظاهرات الحياة فى الكائنات الحية . فالتسليم بوجود غرائز للإبقاء على الحياة ننسبها لكافة الكائنات الحية يتناقض تناقضاً شديداً مع القول بأن الحياة الغريزية بأجمعها تهدف إلى التماس الموت . وعلى ضوء هذا تكاد تتلاشى أهمية غرائز المحافظة على الحياة والسيطرة والاعتزاز بالذات ، لأنها غرائز فرعية تصبح وظيفتها العمل على أن تضمن سير الكائن الحى فى سبيله إلى الموت ، وأن تدفع به بعيداً عن أى سبيل ، يؤدى به إلى العودة إلى حالة المادة الجامدة ، غير السبيل الذى تنطوى عليه ثنايا الكائن الحى نفسه . وإذا بنا وقد عجزنا عن تفسير ذلك التصميم المحير الذى يدفعه إلى الإبقاء على حياته فى وجه أية عقبة تعترضها . وإذا بنا نجد أنفسنا ملزمين بالتسليم بأن الكائن الحى لا يبتغى الموت إلا وفقاً لطريقته الخاصة ، وبأن الغرائز

التى تقوم بحراسة حياته ليست فى صميمها سوى رسل للمنية والموت . ومن هنا نقع فى التناقض إذ نقول إن الكائن الحى يجاهد جهاداً عنيفاً ضد الأحداث (أو الأخطار) التى قد تعينه على الوصول عاجلا إلى غاية الحياة بالسير فى أقصر السبل المؤدية إلى هذه الغاية . ورغم هذا فإن ذلك هو فى الواقع ما يفرق بين السلوك الغريزى وبين المحاولات التى يمليها الذكاء .

لكن فلنتوقف برهة ولنفكر . إن الأمر لا يمكن أن يكون على هذا الحال . ذلك لأن الغرائز الجنسية ، التى تنسب لها نظرية الأمراض النفسية عملا خاصاً ، تدلى إلينا برأى يختلف عن هذا تمام الاختلاف .

فالضغط الخارجى الذى يدفع الكائنات الحية إلى زيادة النماء والتطور لم يفرض نفسه على كل كائن . فقد أفلحت كثير من الكائنات الحية فى البقاء حتى اليوم فى مستواها الوضيع ، ولا بد أن كثيراً من مثل هذه الكائنات، إن لم تكن جميعاً ، ما زالت تشبه الحيوانات والنباتات العليا فى مراحلها المبكرة . وعلى نفس المنوال ، لا تتبع كافة الأحياء الأولية ، التى تدخل فى التكوين المعقد لأجسام الكائنات العليا ، كل مراحل التطور التى تؤدى إلى غاية الحياة، ألا وهى الموت . فبعضها ، مثل جراثيم التناسل ، قد تحتفظ بالتكوين الأصيل للمادة الحية ، حتى إذا مر بعض الوقت ، انفصلت عن الكائن الحى كله بما استوعبته من الاستعدادات الغريزية التى كانت قد انتقلت إليها عن طريق الوراثة أو ظفرت بها عن طريق الاكتساب الجديد . وهاتين الخاصتين هما فى الواقع — ما يهيىء لجراثيم التناسل حياة مستقلة منفصلة . فإذا ما واتتها الظروف بدأت تتحول وتنمو ، أى بدأت تكرر عين الدورة التى يعود إليها الفضل فيما لها من حياة ؛ فإذا ما بلغت غايتها واصل جانب من الكائن سيره إلى العدم ، بينما ينفصل عنه جانب آخر ويبدأ الدورة من جديد فى صورة جرثومة من

جراثيم التناسل . وهكذا تعمل هذه الجراثيم على دفع الموت عن المادة الحية ، وهى تفلح فى أن تظفر لها بما يبدو حتما كأنه قدرة على الخلود ، رغم أن هذا قد لا يعنى أكثر من إطالة السبيل الذى يؤدى بها إلى الموت . ومما له أكبر الدلالة أن ما يعضد الخلية التناسلية فى قيامها بهذه الوظيفة ، بل ما يهيىء إمكان حدوثها على الإطلاق ، إنما هو انضمامها إلى خلية أخرى تشبهها من نواح ، رغم اختلافها وإياها من نواح أخرى .

هذه الغرائز التى ترعى أقدار تلك الكائنات الأولية التى يمتد بقاؤها أكثر من بقاء الفرد بأجمعه ، والتى تهيىء لتلك الكائنات ملجأ أميناً حين تعجز عن الدفاع فى وجه العوامل التى تصدر عن العالم الخارجى ، والتى تؤدى إلى أن اجتماعها بغيرها من الخلايا التناسلية ، وما إلى ذلك ، إنما هى مجموعة الغرائز الجنسية . وهى تتميز بالميل إلى المحافظة ، حالها فى ذلك حال غيرها من الغرائز ، لأنها تعمل على استعادة الأحوال الأولى للمادة الحية ؛ لكنها أكثر ميلا للمحافظة ، إذ هى تتميز بشدة مقاومتها للمؤثرات الخارجية ؛ كما أنها أشد محافظة من ناحية أخرى إذ أنها تعمل فى سبيل الإبقاء على الحياة أمداً يمتد زمناً طويلا[1] . فالغرائز الجنسية ، فى الواقع هى غرائز الحياة بمعنى الكلمة . إذ هى التى تقف دون تحقيق الغاية التى تسعى إليها الغرائز الأخرى ، هذه الغرائز التى تؤدى بها وظيفتها إلى الموت ؛ وهذا الأمر الواقع يثبت أن هناك تعارضاً بين الغرائز الجنسية وغيرها من الغرائز ، تعارضاً وقفنا على أهميته ومقدار خطره من زمن طويل منذ أن اهتدينا بالتحليل النفسى إلى تفسير الأمراض النفسية . فالأمر يلوح كأن حياة الكائن تجرى فى إيقاع يختلف ويتباين : مجموعة من الغرائز تنطلق إلى الأمام تسعى نحو غاية الحياة النهائية فى أقصى ما تستطيعه من العجلة

[(١) ورغم هذا فإنه لا يمكن أن ننسب ذلك الدافع الداخلى نحو « التقدم » ونحو المراتب العليا من التطور إلا إلى هذه الغرائز وحدها . (انظر ما بعد ، ص ٥٥ .)]

والتسرع ؛ لكنها إذا ما وصلت فى مسيرها إلى مرحلة معينة كرّت المجموعة الأخرى راجعة إلى مرحلة خاصة حيث يمكن أن تبدأ الرحلة من جديد ومن ثم يطول السفر . ورغم أنه من المحقق أن الميول الجنسية وأن التفرقة بين الجنسين لم توجد منذ أن وجدت الحياة، إلا أنه من الممكن أن الغرائز التى أضحت خليقة فيما بعد بأن يطلق عليها اسم الغرائز الجنسية كانت موجودة فعالة منذ مطلع الأمر ، وأنها شرعت فى مناوءة « غرائز الأنا »[1] منذ ذلك الحين ، لا بعد ذلك .

فلتوقف هنا قليلا ولنتأمل وقع الخطا التى خطوناها كى نرى إلى ما يمكن أن يؤيد هذه التأملات التى ذهبنا إليها . أترى أنه لا يوجد حقاً ، فيما عدا الغرائز الجنسية ، أية غرائز أخرى تعمل فى سبيل إعادة الأحوال إلى ما كانت عليه ؟ أو أية غرائز أخرى تهدف نحو الوصول إلى حالة لم تقع ألبتة من قبل ؟ الحق أنى لا أعرف فى عالم الحياة العضوية أى مثل واحد يمكن أن ينفى ما أذهب إليه هنا . ليس من شك فى أنه لا توجد أية غريزة شاملة فى عالم الحيوان أو النبات تدفع بالأحياء إلى التقدم والتطور ، رغم أنه لا يمكن أن ننكر فى الواقع أن التطور يسير نحو التقدم . لكنا من ناحية كثيراً ما نختلف فى اعتبار إحدى مراحل التطور أعلى من مراحله الأخرى ، ومن ناحية أخرى يقرر علم الأحياء أن التطور فى بعض الخصائص كثيراً ما يعادله ويفوقه تأخر فى بعض الخصائص الأخرى . أضف إلى هذا أن هناك كثيراً من الحيوانات التى يمكن أن نستدل من مراحل نموها المبكرة على أن تحولها (أو تطورها) قد سلك، على النقيض من ذلك ، مسلك التأخر والانتكاس . ولقد يكون التطور والانتكاس من نتائج

[(١) ينبغى أن يكون مفهوماً من السياق أن مصطلح « غرائز الأنا »، يستخدم هنا على أنه وصف مؤقت ، يرتد أصله إلا ما كنا نستعمله من مصطلحات فى مطالع التحليل النفسى .]

التكيف وفقاً لضغط العوامل الخارجية ، وفى كلا الحالين يكون الدور الذى تقوم به الغرائز مقصوراً على الاحتفاظ بالتحول الذى يفرض على الكائن الحى ، بأن تجد فى هذا التحول مصدراً للذة والمتعة[1] .

وقد يكون من العسير أيضاً على الكثير منا أن يتخلوا عن الإيمان بأن هناك غريزة فى الإنسان تدفعه إلى السعى نحو الكمال ، هى التى هيأت له الوصول إلى ما هو عليه اليوم من تقدم عقلى وسمو خلقى ، وهى التى قد تهدى خطاه حتى تصل به إلى مستوى الإنسان الأعلى (السوپرمان) . لكننى ، مع هذا ، لا أسلم بوجود مثل هذه الغريزة الداخلية ولا أرى سبيلا للإبقاء على مثل هذا الوهم الرفيق الخداع . ذلك لأنه يلوح لى أن التطور البشرى ، وما وصل إليه حتى اليوم ، لا يتطلب أن نلتمس له تفسيراً يختلف عن تفسير التطور فى الحيوان . وإن ما يبدو لدى أقلية من الناس ، من رغبة ملحة جامحة تدفع بهم إلى الرقى والكمال ليمكن تفسيره على أنه نتيجة كبت الميول الغريزية الذى يقوم عليه كل سام رفيع فى الحضارة الإنسانية . ذلك لأن الغريزة المكبوتة لا تنى ألبتة عن التماس الإشباع الكامل ، الذى يقوم على تكرار حالة أولية من حالات الرضا والإشباع . ولا يكفى ، فى سبيل التخفف من التوتر الدائم الذى يؤدى إليه كبت الغرائز ، أى شكل من أشكال الاستبدال الكامل أو رد الفعل أو أى لون من ألوان التسامى والإعلاء ؛ ومن ثم كان الفرق بين مقدار اللذة والإشباع المرغوب وبين المقدار الذى يمكن الظفر به هو العامل الفعال الذى لا يسمح للإنسان بالتوقف عند أية مرحلة معينة بل « يدفع به أبداً » ، كما يقول الشاعر ،

[(١) وصل فيرنزى (١٩١٣) فى بحثه عن « مراحل نمو القدرة على إدراك الواقع » ، إلى عين النتيجة من طريق آخر ، قال : « لو تابعنا هذه الفكرة حتى نهايتها المنطقية لألفى المرء نفسه وقد سلم بأن هناك نزعة ، نحو المثابرة أو النكوص تسيطر على عالم الحياة العضوية أيضاً ، بينما النزعة نحو التقدم أو التكيف وما إليه ، لا تبدو إلا بتأثير العوامل الخاجية » .]

إلى الأمام لا تلحقه استكانة ولايصيبه وهن »[١] . أما العودة خلال السبيل الذى يؤدى إلى الحصول على الإشباع الكامل فتقف دونه ، بصفة عامة ، ألوان العقبات والمقاومة التى تؤيد أشكال الكبت وتبقى عليه . ومن ثم لم يكن هناك من سبيل آخر إلا الاتجاه نحو الناحية التى لا يزال السبيل إليها مفتوحاً ، ألا وهى ناحية النمو والتطور — رغم أنه لا أمل هناك فى تحقيق الغاية المنشودة أو الوصول إلى الهدف المقصود . إن العمليات التى تؤدى إلى نشوء المخاوف العصابية[٢] ، وهى مخاوف ليست فى الواقع إلا محاولة للهرب من إشباع إحدى الغرائز ، لتزودنا بأنموذج واضح يبين لنا كيف تنشأ تلك النزعة المزعومة التى يسمونها « غريزة السعى نحو الكمال » — هذه « الغريزة » التى لا يمكن أن نقول بوجودها عند كافة بنى البشر . لكن الحق أن الشروط الديناميكية لنشوء هذه النزعة موجودة عند الناس كافة ؛ غير أنه لا يتأتى إلا فى الأحوال النادرة أن تهيىء الشروط الاقتصادية حدوث تلك الظاهرة .

ورغم هذا فإنى أود أن أضيف هنا إشارة موجزة إلى أن عمل « الحب» ، على الجمع بين الوحدات العضوية فى وحدات أكبر ثم أكبر ، قد يكون بديلا لذلك « الميل الغريزى نحو الكمال » الذى لا نستطيع أن نسلم بوجوده فى فطرة الإنسان . ذلك لأن الظاهرات التى ينسبونها لذلك الميل يمكن تفسيرها بما يهدف إليه الحب ، بالإضافة إلى نتائج الكبت .

[(١) عن الفصل الاول من « فاوست » للشاعر الألمانى جوته .]

(٢) المخاوف المرضية (Phobias) هى الخوف الدائم من شىء أو موقف أو عمل خوفاً لا يبرره الواقع . ومن تلك المخاوف الخوف من بعض الحيوان أو من الشوارع أو من الأماكن الضيقة ، وغير ذلك . (المترجم) .

الفصل السادس

انتهينا مما قمنا به من الاستقصاء السالف إلى أن هناك فرقاً شاسعاً وتعارضاً شديداً بين غرائز « الأنا » والغرائز الجنسية ، وإلى القول بأن الأولى تدفع نحو الموت بينما تعمل الثانية على إطالة الحياة . غير أنه لا بد أن هذه النتيجة لا تبدو لأحد — حتى لنا نحن — نتيجة مرضية من نواح عدة . أضف إلى هذا أنه لا يمكن أن ننسب الميل إلى المحافظة، بله الميل إلى الارتداد ، إلا لتلك الفئة الأولى من الغرائز ؛ وهى الصفة التى تلازم إجبار التكرار . ذلك لأنا قد ذهبنا إلى أن غرائز الأنا تصدر عن نشوء الحياة من المادة الجامدة ، فهى تعمل على استعادة أحوال الجماد ؛ على حين أنه من الواضح أن الغرائز الجنسية — رغم أنها ، والحق ، تستعيد الأحوال الأولية للكائن الحى — تهدف بكل وسيلة ممكنة إلى الجمع بين خليتين تناسليتين تتميز كل منهما بخصائص معينة . فإذا لم يتحقق هذا التوحيد ، ماتت الخلية التناسلية ، وماتت معها كافة العناصر التى ينطوى عليها الكائن الحى بما يتضمنه من أكداس الخلايا . ويتوقف على تحقيق ذلك الشرط أن تستطيع الوظيفة الجنسية إطالة حياة الخلية وأن تضفى عليها مسحة من الخلود . لكن ما هو الحادث الهام الخطير فى نمو المادة الحية الذى يتكرر فى التناسل الجنسى ، أو فى المرحلة السابقة له التى تقتصر على انضمام حويصلتين من حويصلات الحياة (البروتوبلازم) ؟ وهنا يسقط فى أيدينا ونعجز عن الجواب ؛ بل نشعر نتيجة لذلك بالراحة إذا تداعت كافة الدعائم التى تقوم عليها

الحجة التى قلنا بها وتبين أنا قد كنا مخطئين . إذ يتبين بذلك أن التناقض بين غرائز الأنا أو غرائز الموت وبين الغرائز الجنسية أو غرائز الحياة لم يعد له ما يبرره وأن إجبار التكرار لم يعد له من الإهمية أو الخطر ما نسبناه إليه .

فلنعد إذن إلى أحد الفروض التى أوردناها من قبل ، فلعلنا نستطيع بذلك أن ندحضها دحضاً كاملا . لقد وصلنا إلى نتائج بعيدة المدى حين افترضنا أن كل مادة حية مصيرها إلى الموت بفعل أسباب داخلية . ولم نلتزم ما ينبغى من الحرص حين قلنا بهذا الفرض ، لأنه والحق لا يلوح لنا فرضاً علمياً على الإطلاق . ذلك لأننا قد ألفنا أن نظن أن ذلك هو الواقع ويؤيدنا فى هذا الظن ما يجرى على ألسنة الكتاب والشعراء . ولعلنا قد اتخذنا ذلك اللون من الإيمان لأن فيه بعض العزاء والسلوى : فإذا كان مكتوباً علينا أن نموت وأن يختطف منا الموت قبل ذلك من نحبهم ونعتز بهم ، كان من الأيسر أن نتقبل ذلك إذا نحن سلمنا خاضعين لناموس محتوم جبار من نواميس الطبيعة أكثر من التسليم بأنه أمر تفرضه الصدفة العابرة التى قد يمكن الروغان أو الهروب منها . وقد يمكن مع هذا ، ألا يكون ذلك الإيمان بضرورة الموت وحتميته نتيجة لأسباب داخلية سوى شكل آخر من أشكال الأوهام التى نغرق فيها « حتى نخفف عن كواهلنا أثقال الحياة » (١) . ومن المحقق أن مثل هذا الإيمان ليس إيماناً بدائياً ؛ إذ أن فكرة « الموت الطبيعى » فكرة لم تطرأ البتة فى تفكير الشعوب البدائية ؛ بل إنهم كانوا ينسبون أى شكل من أشكال المنية ينزل بهم إلى فعل عدو من الأعداء أو روح من الأرواح الشريرة . لهذا لم يكن هناك بد من أن نلجأ إلى علم الأحياء نلتمس فيه ما لهذا الإيمان من صحة وصواب .

إذا فعلنا هذا فقد تعترينا الدهشة من قلة الاتفاق بين علماء الأحياء فيما

[(١) عن الفصل الأول من « مأساة مسينا » للشاعر شيلر .]

يختص بموضوع الموت الطبيعى ، بل الواقع أن مسألة الموت بأكملها تحيرهم وتخفى عليهم خفاء تاماً . إن مما يؤيد الإيمان بأن هناك من الموت ما ينزل بالفرد نتيجة لأسباب طبيعية هو أن للحيوانات العليا على الأقل متوسطاً مألوفاً لمدى الحياة . غير أنه مما يناقض ذلك أن بعض الحيوانات الضخمة وبعض أنواع الأشجار الهائلة الجبارة تمتد آجالها عصوراً طويلة امتداداً نعجز اليوم عن حسابه أو التحقق من مداه . ويذهب العالم « وليم فلْيس » (١٩٠٦) إلى أن كافة ظاهرات الحياة التى تبدو من الكائنات العضوية — ومنها دون شك ما ينزل بها من موت — ترتبط ارتباطاً وثيقاً باستكمالها لفترات محدودة من العمر يحددها اعتماد نوعين من المادة الحية(أحدهما مذكر والآخر مؤنث) على السنة الشمسية . على أنا مع ذلك لو رأينا إلى السهولة التى تستطيع بها العوامل الخارجية أن تؤثر تأثيراً شاملا على الوقت الذى تبدو فيه ظاهرات الحياة ، وخاصة فى عالم النبات، بتقديم مواسم ظهوره أو تأخيرها ، لحق لنا أن نتشكك فى صدق ما يذهب إليه ذلك العالم ، أو على الأقل أن نتردد فى التسليم بأن القوانين التى وضعها هى وحدها العوامل الفعالة .

لكن الأبحاث التى وردت فى مؤلفات العلامة «وايزمان»[1] عن الموت وعن

---

(١) وايزمان A. Weisman (١٨٣٤ — ١٩١٤) ، أحد كبار علماء البيولوجيا الألمان . كان أستاذاً لعلم الحيوان بجامعة فرايبورج . ذاع اسمه بعد أن تحول ، نتيجة لضعف بصره ، عن الأبحاث المكروسكوبية إلى البحث فى المسائل البيولوجية الكبرى .

وقد ترجمت بعض رسائله إلى اللغة الإنجليزية فى أواخر القرن الماضى بعنوان « دراسات فى نظريات التوارث » وقدم لها دراوين مبيناً أهمية الآراء التى أدلى بها وايزمان .

ويقترن اسم وايزمان بنظريته عن دور الخلية التناسلية فى الوراثة وما يرتبط بها من إنكار لانتقال الخصائص المكتسبة . وقد نشرت له عدة كتب تجمع أبحاثه الخاصة بدوام الخلية التناسلية كما اهتدى غيره من العلماء بعد ذلك إلى ما يؤيد ما قال به عن تكوين هذه الخلية .

(المترجم)

مدى الحياة عند الكائنات العضوية تسترعى منا أشد الانتباه فيما نحن بصدده ، إذ إليه يعود الفضل فى القول بتقسيم المادة الحية إلى جانب فان وجانب خالد . والجانب الفانى هو الجسم فى أضيق معانيه — ذلك الجسم الذى يخضع وحده للموت الطبيعى. أما الخلايا التناسلية فإنها خليقة بالخلود بمعنى أنها تستطيع ، إذا واتتها الظروف ، أن تتحول إلى فرد جديد ، أو بعبارة أخرى أن تحيط نفسها ببدن جديد .

ومما يستلفت النظر فى هذا الرأى ما به من تشابه لم نكن ننتظره بينه وبين الرأى الذى قلنا به ، ذلك الرأى الذى وصلنا إليه من سبيل يختلف عن السبيل الذى سلكه وايزمان تمام الاختلاف . إذ هو بدراسته للمادة الحية دراسة وصفية قد استطاع أن يفرق فى تلك المادة بين جانب كتب عليه الموت — هو البنية أو البدن — وبين الخلية التناسلية وهى جانب يختلف عن ذلك ويختص بالجنس والوراثة كما يعمل على حفظ النوع عن طريق التناسل . ولما كنا قد تجنبنا دراسة المادة الحية وبحثنا فى القوى التى تعتمل فيها ، فقد استطعنا أن نفرق بين نوعين من الغرائز : تلك التى تسعى بالحى نحو منيته وبين غيرها من الغرائز ، ألا وهى الغرائز الجنسية التى تحاول أبداً أن تجدد الحياة وتنجح فى تحقيق هذا التجديد. ويلوح أن هذا هو البديل الديناميكى للنظرية الوصفية التى قال بها وايزمان.

غير أنه سرعان ما تتلاشى هذه الصلة القوية بين النظريتين إذا ما رأينا إلى آراء وايزمان عن مشكلة الموت . ذلك لأنه لا ينسب التمييز بين البدن الفانى وبين خلية التناسل الخالدة إلا للكائنات العضوية الكثيرة الخلايا ؛ أما الكائنات ذات الخلية الواحدة فلا تزال فيها الخلية الفردية والخلية التناسلية خلية واحدة لا تفرقة بينهما ولا تمييز . ومن ثم يذهب وايزمان إلى أن الكائنات العضوية المفردة الخلية خالدة بالقوة[1] ، وإلى أن الموت لا يظهر إلا بظهور الكائنات

---

(١) نستعمل لفظ «بالقوة» وفق الاصطلاح الفلسفى ، أى أنه يمكن أن يكون خالداً (المترجم) .

ذات الخلايا الكثيرة . ويقول إن الحق أن موت الحيوانات العليا موت طبيعى ، تؤدى إليه أسباب داخلية ؛ غير أنه لا يقوم على أية خاصة مبدئية تتميز بها المادة الحية ، ولا يمكن اعتباره ضرورة لا محيص عنها إذ أن أصوله تتغلغل فى صميم الحياة. بل الأرجح أن الموت ليس إلا لوناً من ألوان الحيلة والتخلص ، وهو مظهر من مظاهر التكيف وفقاً لشروط الحياة الخارجية ؛ ذلك لأن خلايا البدن إذا ما انقسمت إلى جسم وجراثيم تناسلية أصبح امتداد حياة الفرد دون نهاية صورة مسرفة من صور الترف لا مرمى لها ولا جدوى منها ، فإن وقوع هذا التميز فى الكائنات العضوية كثيرة الخلايا قد أدى إلى إمكان الموت ومناسبته. ومنذ ذلك الحين صار بدن الكائنات العليا يموت بعد فترات معينة نتيجة لأسباب داخلية ، على حين أن الخلايا التناسلية بقيت خالدة . على أن هذا من ناحية أخرى ليس الحال فى التناسل الذى لم يظهر بظهور الموت ، بل كان على النقيض من ذلك خاصة أولية من خصائص المادة الحية وكان حاله فى ذلك حال النمو والحياة ، فكان باقياً مستمراً منذ أن ظهرت الحياة على وجه الأرض .

ومن اليسير أن نرى أن التسليم بأقوال وايزمان التى يقرر فيها أن الموت الطبيعى يلازم حياة الحيوانات العليا لا يؤيد ما نذهب إليه فى كثير . ذلك لأنه إذا كان الموت أمراً لم تعرفه الكائنات العضوية إلا فى عصر متأخر لم يكن هناك محل للقول بوجود غرائز الموت منذ أن ظهرت الحياة على هذه الأرض . قد تنتهى آجال الكائنات متعددة الخلايا لأسباب داخلية كأن يضطرب تمايزها أو تفسد عمليات الهدم والبناء فيها ، لكن هذا الأمر لا يعنينا كثيراً فى المسألة التى نبحث فيها. بل إن تفسير أصل الموت على مثل هذا المنوال لأقل اختلافاً بكثير عن طرائق تفكيرنا العادية من الفرض الغريب الذى قلنا به حيث قررنا وجود «غرائز الموت» .

أما ما دار حول آراء وايزمان من نقاش فإنه لم يؤد ، على قدر ما أرى ،

إلى أية نتيجة حاسمة من أى ناحية من النواحى . فلقد عاد بعض الكتاب إلى التسليم بآراء « جوتّه » (١٨٨٣) الذى اعتبر الموت نتيجة مباشرة للتناسل . أما « هارتمان » (١٩٠٦) فإنه لم ير أن ظهور « جسم ميت » — أى جزء ميت من المادة الحية — دلالة على الموت ، بل هو يعرّف الموت بأنه : « انتهاء نمو الفرد » . ومن ثم تكون الأحياء المفردة الخلية ، وفق هذا التعريف ، أحياء فانية ؛ فالموت يقع أبداً بتلك الأحياء عند وقوع التناسل ، ولو أنه يخفى إلى حد ما لأن كيان الحيوان الوالد بأكمله قد ينتقل مباشرة إلى كيان أبنائه .

وسرعان ما اتجهت الأبحاث بعد ذلك إلى إجراء التجارب على الأحياء ذات الخلية الواحدة للتحقق مما زعموه من خلود المادة الحية . ووصل أحد الأمريكيين من علماء الأحياء ، يدعى « وُودرَف » ، من التجارب التى أجراها على أحد الأحياء الدنيا التى تعرف باسم « الأنفوزوريا الشعيرية » ، التى يتناسل الواحد منها بانقسامه إلى فردين ، إلى أن حياته تمتد حتى الجيل التاسع والعشرين بعد ثلاثة آلاف (حين توقف العالم عن الاستمرار فى التجربة) بعد أن كان يعزل النسل فى كل مرة ويضعه فى ماء عذب . وقد تبين له أن الخلف البعيد للجرثومة الأولى كان له من الحيوية مثل ما كان لجده ، ولم تبد عليه أية دلالة من دلالات الهرم أو الانحلال . فإن دلت مثل هذه الأرقام على شيء فإنها قد تثبت أن خلود الحيوانات ذات الخلية الواحدة أمر يمكن التحقق منه تجريبياً .

لكن غيره من العلماء قد اختلفوا وإياه فيما وصلوا إليه من نتائج . إذ وجد «مُوپاه» و «كُولْكِنز» وغيرهما أنه بعد عدد من الانقسامات يلحق الضعف بالحيوان ، ويتضاءل حجمه ، وتذهب عنه بعض خصائصه ، ثم توافيه المنية ، إلا إذا اتخذت بعض الوسائل لإسعافه وتقويته . وإذا كان هذا هو الحال فإنه يبدو أن الكائنات المفردة الخلية ينزل بها الموت بعد فترة من الهرم كما ينزل

بالحيوانات العليا . وهذا رأى يناقض تمام المناقضة رأى وايزمان الذى يقول إن الموت أمر لم تعرفه الكائنات الحية إلا فى مرحلة متأخرة من مراحل التطور .

تؤدى بنا هذه التجارب إلى حقيقتين يمكن أن نعتمد عليهما

الأولى : أنه إذا أمكن أن يندمج اثنان من هذه الأحياء أحدهما فى الآخر قبل أن تلحق بهما أعراض الهرم أمكنهما أن ينقذا نفسيهما من وهن الشيخوخة « وأن يجددا شبابهما » . فالاندماج يسبق التناسل الجنسى عند الحيوانات العليا ، وهو لا يؤدى إلى إكثار النسل إذ يقتصر على المزج بين مادتى فردين من الأفراد . ومع ذلك فإن ما يتأتى عن الاندماج من تقوية يمكن أن نستبدل به بعض العناصر المقوية ، أو أن نغير تكوين السائل الذى يتغذى عليه الحيوان ، أو نرفع درجة حرارته أو نوقع بعض الهزات به . ويذكرنا هذا بالتجربة المشهورة التى قام بها العلامة « لويب » واستطاع فيها — مستعيناً ببعض المثيرات الكيماوية المعينة — أن يدفع بيض قنافذ البحر إلى الانقسام ، وهى عملية لا تحدث فى الظروف العادية إلا بعد الإخصاب .

والثانية : أنه من المحتمل ، على الرغم من ذلك، أن ينزل الموت الطبيعى بالأحياء الدنيا كنتيجة محتومة لعملية الحياة . ذلك لأن التناقض بين النتائج التى وصل إليها « وودرف » وبين ما وصل إليه غيره من المحدثين إنما يعود إلى أنه كان يزود كل جيل بسائل جديد للتغذية ، وإلى أنه كان إذا أغفل القيام بذلك لاحظ عين مظاهر الهرم التى كان يلاحظها غيره، وقد انتهى من ذلك إلى أن تلك الأحياء كان يلحقها الأذى من متخلفات عمليات الهدم والبناء التى كانت تلك الأحياء تلفظها إلى السائل الذى تعيش فيه ، فاستطاع بذلك أن يجزم بأن المواد التى كانت تتخلف من عمليات الهدم والبناء التى تجرى فى جسم الحيوان هى السبب فى هلاك أى جيل من أجياله . ذلك لأن نفس الحيوانات التى كان لا بد من

هلاكها إذا تكدس بعضها على بعض فى سائل مغذٍ واحد كانت تنشط إذا وضعت فى محلول مشبع بمخلفات تركها نوع بعيد القرابة عنها من الحيوانات الأخرى . فكأن حيوان الإنفوزوريا » إذا ترك وشأنه مات موتاً طبيعياً ، ما لم يتخلص تخلصاً تاماً من جميع المتخلفات التى يفرزها نتيجة لعمليات الهدم والبناء فيه . ولقد يكون مثل هذا العجز هو العامل الذى يؤدى إلى موت كافة الحيوانات العليا أيضاً .

إذا ما وصلنا إلى هذا حق لنا أن نتساءل عن الغاية التى نهدف لها إذ نحاول أن نلتمس حلا لمشكلة الموت الطبيعى من دراستنا للأحياء المفردة الخلية . ذلك لأن التنظيم الأولى لتلك الكائنات قد يحجب عن أنظارنا بعض الخصائص الهامة التى لا تظهر للعيان ، إلا فى الحيوانات العليا حيث يمكن أن تبدو فى صورة وصفية . هذا إلى إنا لو تخلينا عن وجهة النظر المكانية الوصفية واتخذنا الوجهة الديناميكية ، لتساوى عندنا أن نستطيع إثبات وقوع الموت الطبيعى بالكائنات الدنيا وألا نستطيع ذلك الإثبات . ذلك لأن المادة التى يمكن أن نتميز فيها الخلود بعد ذلك لم تنفصل بعد من المادة الفانية . ولهذا يمكن أن نذهب إلى أن القوى الغريزية التى تدفع بخطا الحى إلى الموت قد تكون عاملة فعالة أيضاً فى تلك الأحياء الدنيا منذ فجر الحياة ، رغم أن آثارها قد تختفى اختفاء تاماً بفعل القوى التى تحافظ على الحياة ، حتى ليصبح من العسير المسرف فى العسر أن نتبين أية دلالة لوجود تلك القوى الأولى . أضف إلى ذلك أنا قد وجدنا أن الأبحاث التى قام بها علماء الأحياء تخول لنا أن نذهب إلى أن مثل تلك العمليات الداخلية التى تؤدى إلى الموت تقع أيضاً فى ثنايا الأحياء الدنيا ، حتى أنه لو ثبت أن هذه الأحياء خالدة كما يقول وايزمان فإن رأيه القائل بأن الموت لم يعرف إلا فى مراحل متأخرة من التطور لن ينطبق إلا على الظاهرات

الواضحة اه ، ولن ينافى القول بوجود عمليات تنزع نحوه وتهدف إليه .

وهكذا نرى أن علم الأحياء لم يحقق ما كنا نتوقعه من نفى قاطع لوجود غرائز الموت . ومن ثم حق لنا أن نواصل البحث فى إمكان وجودها ، وخاصة إذ كان لدينا من الأسباب الأخرى ما يدعو إلى ذلك . وما زال التشابه العجيب بين تفرقة وايزمان بين الجسم والخلية التناسلية وتفرقتنا بين غرائز الموت وغرائز الحياة قائماً له دلالته وأهميته .

ولنتريث قليلا كى نبحث فى هذا الرأى الأثنينى عن الحياة الغريزية . إذ هناك ، وفقاً للنظرية التى يقول بها « هيرنج » ، نوعان من العمليات التى تجرى فى المادة الحية ويناقض أحدهما الآخر ، فبينما يعمل أحدهما على البناء أو التمثيل يعمل الآخر على الهدم أو التخلص . ألا يمكن أن نلتمس فى هذين الاتجاهين اللذين تسير نحوهما عمليات الحياة مصدراً لما نذهب إليه من وجود دافعين فى الحياة الغريزية ألا وهما غرائز الحياة وغرائز الموت ؟

ومهما يكن من أمر ، فإن هناك شيئاً آخر لا يمكن أن يطول إغفالنا له ، إذ يبدو أنا قد انزلقت بنا الخطا ، دون فطنة منا ، إلى أحضان الفلسفة التى التى يقول بها «شوبنهور» ، إذ هو يذهب إلى أن الموت « هو النهاية الحقة وهو لذلك غاية الحياة[1] » . على حين أن الغريزة الجنسية ليست إلا أداة تتجسم فيها إرادة الحياة ورغبتها .

ولنقم بمحاولة جريئة نخطو بها خطوة أخرى إلى الأمام . من المسلم به عامة أن اتحاد عدد من الخلايا بعضها مع بعض — وهى خاصة الكائنات ذات الخلايا الكثيرة — قد أصبح الوسيلة لإطالة أعمارها . فالخلية الواحدة تساعد على الإبقاء على حياة غيرها ، ومن ثم تستطيع مجموعة الخلايا أن تبقى حية حتى لو

[Schopenhauer (1851) *Samtliehe Wocrke*. ed. Hübscher. 1938. 5.236 (١)]

كتب على الخلايا المفردة أن تموت . ولقد وقفنا أيضاً فيما سلف على أن الاندماج هو الآخر ، أى الانضمام المؤقت لكائنين من ذوات الخلية الواحدة ، له أثره فى المحافظة على حياة كليهما وتجديد شبابه . فإذا كان الأمر كذلك حق لنا أن نحاول تطبيق نظرية « اللبيدو » ، التى هدانا إليها التحليل النفسى ، على العلاقة بين الخلايا ، وحق لنا أن نذهب إلى أن غرائز الحياة أو الغرائز الجنسية الفعالة فى كل خلية تتخذ من الخلايا الأخرى هدفاً لها وموضوعاً فتقضى بذلك على جانب من غرائز الموت (أى تعطل جانباً من العمليات التى تدفع إليها) تلك الغرائز التى توجد فى الخلايا الأخرى وبذلك تحافظ على حياتها ؛ على حين أن الخلايا الأخرى تقوم بنفس الأمر فى سبيل هذه الخلايا ، بينما تضحى غيرها بنفسها عند قيامها بهذه الوظيفة الشهوية . ومن هذا يبدو أن خلايا التناسل نفسها تتميز بإغراقها فى «النرجسية» — وهى مصطلح ألفنا استخدامه فى أبحاثنا عن الأمراض النفسية كى نصف به الفرد بأكمله إن هو احتفظ بما لديه من « لبيدو » فى نطاق ذاته ولم يطلق أى جانب من شحنته نحو الأشياء الخارجة عنه . فالخلايا التناسلية تستمسك بما لديها من اللبيدو ، ومن النشاط الذى يصدر عن غرائز الحياة ، فتبقيه لنفسها كأنه احتياطى تلجأ إلى استخدامه إذا ما شرعت بعد ذلك فى القيام بأعبائها الإنشائية الخطيرة ، (بل إنه قد ينبغى أن نصف خلايا الأورام الخبيثة التى تعيث فى الكائن الحى بأنها « نرجسية » أيضاً : لأن علم الأمراض لا يتردد فى اعتبار أن جراثيمها فطرية وأن لها خصائص تلازم حياة الجنين) . وعلى هذا المنوال يكون ما نقوله عن اللبيدو الذى يلازم الغرائز الجنسية متفقاً وإيروس (إله الحب) كما يتحدث عنه الشعراء والفلاسفة فى أنه يعمل على جمع الكائنات الحية بعضها إلى بعض وعلى ربطها جميعاً فى وثاق واحد .

إذا ما وصلنا إلى هذا أتيحت لنا الفرصة كى نلقى نظرة على النمو الوئيد

الذى سارت فيه النظرية التى قلنا بها عن اللبيدو . فقد ألزمنا أول الأمر ، من تحليل الأمراض النفسية التحويلية[١] ، أن نلاحظ التعارض بين الغرائز الجنسية ، هذه الغرائز التى تتجه نحو أحد الموضوعات[٢] ، وبين بعض الغرائز الأخرى التى لم نكن نعرف عنها سوى النزر اليسير فوصفناها وصفاً مؤقتاً بأنها « غرائز الأنا » . وقد وضعنا فى المحل الأول بين هذه الغرائز ، بطبيعة الحال ، تلك الغرائز التى تدفع الفرد إلى المحافظة على حياته . وكان من المحال علينا ، بما كنا قد وصلنا إليه من معرفة حينذاك ، أن ندرك أية فروق أخرى بين هذه الغرائز وتلك . ولم يكن هناك من معرفة تنفع أساساً لعلم صحيح بالنفس أكثر من وقوفنا على الخصائص العامة للغرائز ، وعلى أوجه الخلاف والتمايز بينها . غير أننا كنا فى هذه الناحية من علم النفس نتحسس خطانا فى أشد جوانبه غموضاً وأكثر مناطقه ظلاماً . فقد كان كل واحد يعدد من الغرائز أو من « الغرائز الأساسية » ما شاء ، وكان يتلاعب

(١) يفرق التحليل النفسى بين عصاب التحويل Transference Nevrosis وبين العصاب النرجسى Narcissistic Neurosis. فالعصاب التحويلى هو المرض النفسى الذى تكون الأسباب فيه راجعة إلى علاقات النفس المبكرة بالموضوعات الخارجية ، أما العصاب النرجسى فهو المرض الذى يرتد فيه اللبيدو ويثبت فى الداخل . ولهذه التفرقة أهمية كبيرة للتنبؤ بنجاح العلاج بالتحليل ومداه . فالأمراض النفسية التحويلية مثل الهستريا التحولية وهستريا القلق والجزع أيسر فى علاجها من عصاب الوسواس والاجبار الذى يكون فيه تثبيت اللبيدو كبيراً . وهذه وتلك أيسر من علاج العصاب النرجسى (وهو ما يقابل المرض العقلى الوظيفى فى مصطلحات الطب العقلى) ، لأن مدى النكوص والارتداد النفسى فى هذه الأمراض يبلغ حداً لا يرجى كثيراً من التحليل النفسى فى أن يغير منه أو يعمل على إصلاحه .

ويعود استخدام مصطلح «عصاب التحويل» إلى أن المصابين بتلك الأمراض التى يطلق عليها هذا الاسم يشعرون نحو المعالج بضروب مختلفة من المشاعر تكون تكراراً لما مروا به أثناء الطفولة فى علاقاتهم بمن نشأوا بينهم وما اختفى فى أعماق نفوسهم نحو هؤلاء من ألوان المحبة والكراهية (المترجم).

(٢) « الموضوع » فى مصطلحات التحليل النفسى هو الشخص أو الشىء الذى تتجه إليه الدوافع الغريزية ، والذى يمكن أن تجد فيه هذه الدوافع ما يشبعها (المترجم) .

بها ويتحايل ، كما كان يتلاعب الطبيعيون من قدامى الفلاسفة اليونان بالعناصر الأربعة — التراب والهواء والنار والماء . وحين عجز التحليل النفسى ، عن التهرب من ضرورة وضع فرض من الفروض عن الغرائز ، التزم أول الأمر أن يأخذ بالتقسيم المألوف للغرائز الذى يتمثل فى عبارة « الجوع والحب » . وهو إذ أخذ بذلك لم يكن ، على الأقل ، متعسفاً فى الرأى على أى وجه من الوجوه ؛ بل إن تحليل الأمراض النفسية قد أفاد من ذلك الفرض فائدة كبيرة ، فقطع أشواطاً بعيدة إلى الأمام . وكان لا بد لذلك ، فى واقع الأمر ، من توسعة معنى الجنس والغريزة الجنسية حتى تشمل كثيراً من الأمور التى لا تدخل فى الوظيفة التناسلية بمعنى الكلمة ، مما أثار ضجة كبيرة فى عالم يتميز باصطناع الوقار والتزمت ، إن لم يكن يتميز بالنفاق والرياء .

وتحققت الخطوة التالية حين تلمس التحليل النفسى سبيله حتى اقترب من التعرف على « الأنا » من الناحية السيكلوجية . ذلك « الأنا » الذى لم يكن يعرف عنه ، حتى هذا الوقت ، سوى أنه منظمة تقوم بالكبت والرقابة ، وتسهر على وضع ألوان الحماية (من النزعات الغريزية) وبناء أشكال الرد عليها والوقاية منها . والحق أن كثيراً من ذوى العقول الناقدة النفاذة قد اعترضوا منذ وقت طويل على قصر فكرة اللبيدو على طاقة الغرائز الجنسية التى تتجه نحو موضوع من الموضوعات . غير أنهم قد عجزوا عن بيان الحجج التى أدت بهم إلى ترجيح هذا الرأى ، أو عن أن يستمدوا منه شيئاً يمكن أن يفيد منه التحليل . على حين أن التحليل النفسى تقدم ملتزماً الحيطة والحرص فوقف على مقدار الانتظام الذى ينسحب به اللبيدو من الموضوع كى يوجه إلى « الأنا » (عملية الانطواء) ؛ ووصل ، من دراسته لنمو اللبيدو عند الأطفال فى مراحله الأولى ، إلى أن « الأنا » هو المستودع الأصيل الصحيح

الذى يختزن فيه اللبيدو ، وإلى أن اللبيدو لا يصدر أو يتجه نحو الأشياء الخارجية إلا بعد خروجه من هذا المستودع ومن ثم كان « الأنا » واحداً من موضوعات الطفل الجنسية ، بل كان له المحل الأول فما بينها . وعلى هذا الضوء أطلقنا صفة النرجسية على اللبيدو الذى يكون مستقراً فى « الأنا »(١) . وكان هذا اللبيدو النرجسى بالطبع مظهراً من فعل الغريزة الجنسية بالمعنى التحليلى لهذه العبارة . وكان لابد بالضرورة من التوحيد بينه وبين غرائز المحافظة على البقاء التى وقفنا على وجودها منذ أول الأمر . وهكذا تبين أن التعارض الأصيل بين غرائز « الأنا » والغرائز الجنسية تعارض ليس لدينا ما يبرره . ذلك لأنه قد اتضح أن جانباً من غرائز « الأنا » يتميز بطبيعته الشهوانية ؛ هذا إلى أن الغرائز الجنسية تكون فعالة فى « الأنا » إلى جانب غيرها من الغرائز . ورغم هذا فإنه يحق لنا أن نقول إن الرأى القديم الذى قلنا به من قبل ، ذلك الرأى الذى كان يقرر أن الأمراض النفسية تتأتى من الصراع بين غرائز « الأنا » والغرائز الجنسية ، رأى ليس فيه ألبتة ما نحتاج إلى نبذه اليوم ، بل الأمر يقتصر على أن التفرقة بين هذين النوعين من الغرائز ، تلك التفرقة التى كانت تبدو لنا فى أول الأمر متصلة بالكيف ، ينبغى اعتبارها اليوم من ناحية أخرى ألا وهى الناحية المكانية الوصفية . ولم يزل صحيحاً بصفة خاصة أن الأمراض النفسية التحويلية ، وهى لب مباحث التحليل النفسى ، إنما تنتج من الصراع الذى يقوم بين « الأنا » وبين الشحنة الشهوانية للموضوعات الخارجية .

على أنه لابد لنا الآن من الاهتمام بالصبغة الشهوانية لغرائز المحافظة على البقاء وخاصة بعد أن وقفنا على دور الغريزة الجنسية ، أو الحب ، فى المحافظة

[(١) فرويد سنة ١٩١٤ : « عن النرجسية — تمهيد » الجزء الرابع من مجموعة المقالات .]

على كافة الأحياء وبعد أن رأينا أن اللبيدو النرجسى الذى يلازم الأنا إنما هو مشتق من مستودعات اللبيدو التى تمسك خلايا البدن وتحكم وثاق بعضها إلى بعض . إذا ما وصلنا إلى هذا وجدنا أنفسنا فجاءة وقد جابهتنا مسألة جديدة . لأنه إذا ما كانت غرائز المحافظة على البقاء لها هى الأخرى طبيعة شهوانية ، ألا توجد أية غرائز أخرى غير هذه الغرائز الشهوانية ؟ الواقع أنه لا يبدو لنا ، على مدى البصر ، غير تلك الغرائز ؛ وكأننا بذلك قد ألزمنا بالتسليم بما وجهه إلينا الناقدون الذين زعموا منذ أول الأمر أن التحليل النفسى يفسر كل شىء بالميول الجنسية ، أو بالتسليم بآراء المستحدثين مثل « يونج » ، الذى تعجل الحكم . وأخذ يستعمل مصطلح « اللبيدو » كى يعنى به القوة الغريزية بصفة عامة . فما الرأى فى هذا ؟

لم يكن القصد الذى نهدف إليه أن نصل البتة إلى مثل هذه النتيجة . فلقد بدأنا النظر بالتفرقة الحاسمة بين غرائز « الأنا » التى سويناها بغرائز الموت وبين الغرائز الجنسية التى سويناها بغرائز الحياة (حتى لقد كدنا فى إحدى المراحل [ص ٥٠] أن نضم غرائز « الأنا » المعروفة باسم غرائز المحافظة على البقاء إلى غرائز الموت ؛ على أننا قد عدنا بعد ذلك [ص ٥٢] وصححنا أنفسنا فعدلنا عن الرأى السابق) . ولقد كانت النظرية التى دعونا إليها نظرية أثنينية منذ أول الأمر ، ولقد أصبحت اليوم أكثر تحديداً ورسوخاً فى الأثنينية عن ذى قبل — بعد أن أخذنا نصف التعارض لا على أنه بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية بل على أنه تعارض بين غرائز الحياة وغرائز الموت . أما نظرية « يونج » عن اللبيدو فهى على النقيض من ذلك نظرية وحدانية ، ولابد أن يؤدى الاسم الذى أطلقه على القوة الغريزية الواحدة ، وهو اسم اللبيدو ، إلى اللبس ؛ لكن هذا لا يستتبع أن ننحرف

عما نحن بصدده ، بل نحن نذهب إلى أن هناك غرائز أخرى غير غرائز المحافظة على البقاء فعالة فى الأنا وإلى أن من الممكن أن نثبت وجودها ؛ غير أن تحليل الأنا للأسف لم يخط بعد سوى خطوات قليلة مما يزيد فى عسر تلك المهمة علينا . هذا إلى أن غرائز الأنا الشهوانية قد تكون مرتبطة على وجه ما بغرائز الأنا الأخرى التى ما زلنا نجهلها . بل إن التحليل النفسى ، حتى قبل أن يصل إلى أى فهم واضح للنرجسية ، كان يظن أن لغرائز الأنا مقومات شهوانية تتضمنها عناصرها . غير أن هذه كلها احتمالات غير مقطوع بها لا يعيرها خصومنا أى التفات ، وما زالت أمامنا معضلة عويصة لأن التحليل النفسى لم يمكنا حتى الآن من إثبات وجود أية غرائز أخرى غير الغرائز الشهوانية . وعلى الرغم من ذلك فليس ثمة داع للتسليم بأنه لا يوجد فى واقع الأمر غيرها فى النفس .

وليس من الحكمة — وسط هذا الغموض والإبهام الذى يحجب اليوم البحث فى الغرائز — أن نستبعد أية فكرة ينتظر منها أن تلقى على هذه المشكلة أى بصيص من النور . لقد كانت النقطة التى بدأنا منها هى المقابلة الواضحة بين غرائز الحياة وغرائز الموت ، وإذا بنا نجد أن حب الأشياء الخارجية نفسه يواجهنا بمثال آخر فيه مثل تلك المقابلة — ألا وهى المقابلة بين الحب (أو الحنان) وبين الكراهية (أو العدوان) — وكم يكون رائعاً لو أننا وفقنا إلى الربط بين هاتين المقابلتين وإلى اشتقاق إحداهما من الأخرى ؛ لقد اهتدينا منذ أول الأمر إلى وجود عنصر « السادية »[١] أو القسوة فى الغريزة الجنسية[٢] ، وعرفنا أن هذه « السادية » يمكن أن تستقل بنفسها وأن تصبح

---

(١) السادية Sadism هى الحصول على التهيج الجنسى أو على إشباعه ، أو عليهما معاً ، بإنزال الأذى البدنى أو النفسى بشخص آخر (المترجم) .

[(٢) قد أشرنا إلى ذلك فى الطبعة الأولى من كتاب « ثلاث مقالات عن نظرية الميول الجنسية » (١٩٠٥)] .

شكلا من أشكال الانحراف ، فتسيطر على الحياة الجنسية للفرد بأكملها ؛ كما أنها تظهر على شكل غريزة فرعية غلابة فى إحدى المراحل التى أطلقت عليها المراحل « السابقة للتناسل » . لكن كيف يمكن أن تكون الغريزة « السادية » التى تهدف إلى إيقاع الأذى بالموضوع مشتقة من غريزة الحب التى تهدف إلى المحافظة على الحياة ؟ ألا يمكن أن نذهب إلى الظن بأن هذه « السادية » ليست فى الواقع إلا غريزة الموت التى أرغمت ، بتأثير اللبيدو النرجسى على الخروج من « الأنا » متجهة نحو الموضوع ؟ وهى بذلك إنما تعمل على خدمة الوظيفة الجنسية ؟ ذلك أنه فى المرحلة الفمية[1] من تنظيم اللبيدو يلازم العملُ ، فى سبيل الحصول على اللذة من الموضوع ، العملَ على تحطيم هذا الموضوع ؛ ثم تنفصل الغريزة « السادية » بعد ذلك حتى تنتهى ، فى مرحلة الأسبقية التناسلية ، إلى القيام بوظيفة التغلب على الموضوع الجنسى إلى الحد اللازم لتنفيذ العملية الجنسية فى سبيل القيام بالتناسل . بل إنه ليمكن القول بأن « السادية » التى أرغمت على الخروج من الأنا قد عبدت الطريق أمام العناصر الشهوانية للغريزة الجنسية حتى أصبحت هذه العناصر تقفو فى هذا السبيل خطوات تلك . ومن ثم كنا نجد التعارض المألوف بين الحب والكراهية فى الحياة الشهوية حيثما وجدت « السادية » الأصيلة خالصة غير مخففة .

فإذا أمكن القول بمثل هذا الفرض ، لم نعد فى حاجة إلى البحث عن مثل آخر لغريزة الموت — رغم أن الواقع أن هذا المثل الذى ذكرناه مثل قد انحرف عن موضعه قليلا . على أن هذا الأسلوب ، الذى اتخذناه من أساليب

---

(١) يمكن الرجوع إلى الباب الخاص بسيكلوجية فرويد فى كتابنا علم النفس الفردى (دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٥٢) لاستيضاح مراحل نمو الميول الجنسية (المترجم) .

النظر ، بعيد كل البعد عن متناول الفهم الميسور ، إلى جانب ما يثيره من شبهة غيبية مغرقة فى الإبهام والغموض ، حتى ليلوح كأننا كنا نلتمس الخروج من مأزق شديد الحرج بأى ثمن من الأثمان . بيد أننا نستطيع عند ذاك أن نؤكد أن الغرض الذى ذهبنا إليه ليس جديداً على أى وجه من الوجوه ، فلقد قلنا بمثله سلفاً ، قبل أن تضيق بنا الحيل أو يقسرنا الموقف . ولقد هدتنا المشاهدات الإكلينيكية ، فى ذلك العهد ، إلى أن نقرر أن « الماسوكية » ، وهى الغريزة الفرعية المكملة للسادية ، ينبغى أن تعتبر « سادية » ارتدت وكرت راجعة على « ذات » صاحبها[1] . على أن الجديد الذى نحن بصدده اليوم هو : أنه لا فرق فى المبدأ بين اتجاه الغريزة من الموضوع إلى الأنا ، وبين اتجاهها من الأنا نحو الموضوع . فالماسوكية ، وهى ارتداد الغريزة إلى « ذات » الشخص ، تبدو فى الواقع رجعة إلى إحدى المراحل المبكرة فى النمو الغريزى ، أى انتكاساً أو نكوصاً . لهذا يبدو لى اليوم أن الآراء التى ذكرتها قديماً عن الماسوكية كانت مسرفة يعوزها الضبط والتصحيح : وهو أن الماسوكية يمكن أن تكون أمراً أولياً أصيلا — وهذا احتمال عارضت إمكان صحته من قبل[2] .

دعنا نرجع ، مع ذلك ، إلى الغرائز الجنسية وعملها فى سبيل المحافظة على الحياة . لقد أثبتت لنا التجارب التى أجريت على الكائنات المفردة

[(١) انظر فرويد (١٩٠٥) وفرويد (١٩١٥) .]

[(٢) سبقتنى فى جانب كبير من هذه التأملات سابينا شبيلرين (١٩١٢) فى مقال حافل ممتع . غير أنى للأسف لم أستطع فهمه كل الفهم . وفى هذا المقال تصف شبيرلين العناصر المادية فى الغريزة الجنسية بأنها « هدامة » . هذا على أن شتاركه (١٩١٤) قد حاول ، أيضاً ، أن يوجد بين فكرة اللبيدو نفسها وبين الفكرة السيكولوجية (القائمة على اعتبارات نظرية) التى تقول بوجود دافع نحو الموت . انظر أيضاً رانك (١٩٠٧) . وكل هذه البحوث ، مثلها مثل ما نحن بصدده فى متن هذا الكتاب ، تثبت شدة الحاجة إلى توضيح نظرية الغرائز توضيحاً لم يتحقق حتى اليوم .]

الخلية أن اندماج كائنين – أى انضمام فردين ينفصلان بعد ذلك دون أن يتبع هذا انقسام فى الخلية – أمر يبعث القوة ويعيد الشباب إلى كل منهما(١) . ولا يبدو عليها فى الأجيال اللاحقة بعد ذلك أية دلالة من دلائل الانحلال ، كما يلوح أنها تصبح أكثر قدرة على إطالة المقاومة ضد ألوان الأذى التى تتأتى مما يجرى بداخلها من عمليات « الهدم والبناء » . إنه ليخيل إلى أن هذه الحقيقة المعروفة يمكن أن تكون مثالا لما يترتب على الاتحاد الجنسى أيضاً . لكن كيف يتأتى أن يؤدى اتحاد خليتين ، لا تختلف الواحدة عن الأخرى سوى اختلاف يسير ، إلى مثل هذا التجديد فى الحياة ؟ إن التجارب التى أجريت للاستغناء عن اندماج الحويصلات الحية (البروتوزوا) باستخدم المثيرات الكيماوية بل الميكانيكية (انظر لپشوتز ، ١٩١٤) لتمكننا من الوصول إلى إجابة حاسمة لا شك فيها عن ذلك السؤال : هى أن تلك الحيوية الجديدة تترتب على تدفق مقادير جديدة من الاستثارة . ويتفق هذا القول اتفاقاً تاماً والفرض الذى يقول بأن عملية الحياة فى الفرد تؤدى به ، لأسباب داخلية ، إلى العمل على معادلة ألوان التوتر الكيماوى فيه ، أو بعبارة أخرى ، إلى الموت ؛ على حين أنه إذا اتحد والمادة الحية لكائن آخر أدى هذا الاتحاد إلى زيادة تلك الألوان من التوتر ، مما يستتبع ما يمكن أن يسمى « اختلافات حيوية » لابد من العيش وقتاً آخر حتى يمكن الإجهاز عليها . ولابد أن يكون لهذه الاختلافات ، بالطبع ، حد أنسب أو حدود مناسبة كى يؤدى الاتحاد بين الخليتين غايته من تجديد الحياة وإطالتها . ومن هذا أيضاً ما نعرفه من أن النزعة الغالبة فى الحياة النفسية ، بل لعلها فى الحياة العصبية بصفة عامة ، هى العمل على خفض التوتر الداخلى الذى يترتب على فعل

[(١) انظر ما ذكرناه عن هذا من قبل حين كنا نتحدث عن أبحاث لپشوتز (١٩١٤) .]

المثيرات أو العمل على التخلص منه والتزام الثبات والسكون (وذلك هو مبدأ « النرفانا » الذى اقترحت اسمه بربارا لو[١] ١٩٢٠) – وتلك نزعة يتضمنها مبدأ اللذة ؛ كما أن إدراكنا لهذه الحقيقة هو أهم الأسباب التى تدعونا إلى الإيمان بوجود غرائز الموت .

على أنا ما زلنا نشعر أن الذى يضعف ما قدمناه من حجة ، إلى حد كبير ، هو أنا لا نستطيع أن ننسب إلى الغرائز الجنسية وجود إجبار للتكرار فيها ، وهو الإجبار الذى قاد خطانا أول الأمر إلى غرائز الموت . فليس من شك أن ميدان نمو الأجنة مفعم بمثل تلك الظاهرات – ظاهرات التكرار الإجبارى ؛ بل إن اجتماع خليتين من أجل التناسل الجنسى ومجرى الحياة الذى يسلكانه ، كل ذلك فى واقع الأمر ليس إلا أموراً تتكرر حتما كما وقعت منذ مطالع الحياة العضوية . غير أن لب العمليات التى تهدف إليها الحياة الجنسية هو الجمع بين خليتين من خلايا الحياة . فإن هذا وحده هو ما يضمن تواصل الحياة فى الكائنات الحية العليا فى سلم التطور .

أى أنه يعوزنا ، بعبارة أخرى ، أن تزيد معارفنا عن أصل التناسل الجنسى وعن الغرائز الجنسية بصفة عامة . فهذه مشكلة تستعصى على أفهام الناس ، بل إن الإخصائيين أنفسهم لم يوفقوا حتى الآن إلى حل لها . ومن

---

(١) بربارا لو Barbara Low إحدى المشتغلات بالتحليل النفسى فى إنجلترا . ويشير هنا فرويد إلى ما ذكرته عن النرفانا فى كتابها Psycho-Analysis المنشور ١٩٢٠ .

والنرفانا Nirvana فكرة مأخوذة عن الفلسفة البوذية التى نشأت فى بلاد الهند ، ويقصد بها الحالة التى يصل إليها الإنسان بعد خلاصه من كل ألم . وقد ورد عن بوذا قوله أن النرفانا ليست هى الكينونة ولا اللاكينونة وإنما هى إطفاء للشهوات .

ولقد كانت النيرفانا فى مبدأ الديانة البوذية غاية لا يصل إليها إلا الشخص الذى مات . لكن أتباع هذه الديانة أضافوا بعد ذلك إلى أن المرء يستطيع أن يظفر بالنيرفانا فى هذه الحياة إذا كان قد أفلح فى إطفاء ما بنفسه من الأهواء والشهوات (المترجم) .

ثم لن نورد فيما يلى سوى أقصر موجز عما يبدو ذا صلة بما نحن بصدده من من حشد الفروض والآراء والنظريات المختلفة عن هذا الموضوع .

يحرم أحد هذه الآراء مسألة التناسل مما لها من روعة وخفاء إذ يعرضها على أنها جانب من مظاهر النمو (انظر التكاثر من طريق الانقسام والتبرعم) ، ويمكن تصور أصل التناسل عن طريق الخلايا المختلفة الجنس على ضوء المعقول من آراء « داروين » بأن نفرض أن فائدة الاتجاد الجنسى ، الذى وصل إليه الكائن فى وقت ما عن طريق الصدفة نتيجة لاندماج خليتين ، قد أمكن الاحتفاظ به ومداومة استغلاله فى مراحل التطور التالية[1] . وعلى ضوء هذا الرأى لا يكون « الجنس » أمراً عريقاً فى القدم ، وتكون الغرائز القوية العنيفة التى تهدف إلى الجمع بين الجنسين تكراراً لأمر حدث يوماً عن طريق الصدفة ثم بقى واستقر لما تبين من نفعه وجدواه .

غير أنه لابد من التساؤل هنا ، كما فعلنا عند الحديث عن الموت ، عما إذا كان يحق لنا أن ننسب إلى الخلايا الأولية تلك الخصائص التى تتميز بها فعلا ، وعما إذا كان من الصواب أن نذهب إلى أن القوى والعمليات التى لم تظهر واضحة إلا فى الحيوانات العليا قد نشأت أصلا فى تلك الخلايا الأولية . وفى هذا لا يجدى علينا الرأى الذى أسلفنا الإشارة إليه خاصاً بالفروق الجنسية ، إذ يمكن أن يعترض عليه بأنه يفرض وجود غرائز الحياة فعالة فى أبسط الكائنات الحية ، وإلا لما أمكن الاحتفاظ بالقدرة على الاندماج وعلى تقدمها بل لوجب العمل على تجنبها مع أنها تعترض مجرى

[(١) ذلك على الرغم من أن وايزمان (١٩٢٨) ينكر هذه الميزة أيضاً فيقول :

« إن الإخصاب لا يؤدى – فى أى حال – إلى إعادة الشباب أو تجديد الحياة وليس وقوعه ضرورياً للإبقاء على الحياة ، وإنما هو وسيلة للمزج بين عنصرين مختلفين من عناصر الوراثة » . لكنه مع ذلك يعتقد أن المزج على هذا المنوال يؤدى إلى زيادة فيما يطرأ على الكائن الحى من تغير].

الحياة وتزيد فى عسر الوصول إلى نهايتها . فإذا كنا لا نود استبعاد الفرض الذى يقول بوجود غرائز الموت وجب أن نذهب إلى أنها كانت ملازمة منذ أول الأمر لغرائز الحياة . غير أنه ينبغى أن نسلم فى هذه الحال بأننا نستخدم معادلة ذات طرفين مجهولين .

وبغض النظر عن هذا ، فإن ما وصل إليه العلم عن أصل الفروق الجنسية ليس إلا نذراً يسيراً ؛ حتى لكأننا ما زلنا ، بصدد هذا الأمر ، فى ظلمة لم يتيسر لأى فرض أن يخترقها أو يلقى عليها بصيصاً من الضوء . لكن الواقع أننا نظفر بمثل هذا الفرض فى ميدان يختلف كل الاختلاف عن هذا الميدان ، ولكنه فرض عجيب — هو أسطورة أكثر منه تفسيراً علمياً — ويبلغ من الإسراف حداً لم أكن أجرؤ معه على ذكره هنا لو أنه لم يكن يفى تماماً بالشرط الوحيد الذى نعمل على استيفائه : ذلك أنه يرد أصل الغريزة إلى الحاجة لإعادة الأمور إلى أحوالها السابقة الأولى .

إن ما يدور بخلدى ، بالطبع ، إنما هى النظرية التى وضعها أفلاطون بين شفاه أرسطوفانيس فى كتاب « المأدبة » ، وهى النظرية التى لاتعالج أصل الغريزة الجنسية فحسب ، بل تعرض أيضاً لأهم أشكالها فيما له صلة بالموضوع الذى تنصرف إليه إذ يقول :

« إن طبيعة الإنسان الأصيلة لم تكن كما هى الآن ، بل كانت مختلفة جد الاختلاف عما هى عليه فى الحاضر : فقد كان الناس أول كل شيء ينقسمون إلى ثلاثة أجناس ، لا إلى اثنين كما هم الآن ؛ كان هناك جنس الرجال وجنس النساء وجنس ثالث يجمع بين خصائص الأنثى وخصائص الذكر . . . » . وكان كل شيء مزدوجاً فى هذه المخلوقات البدائية ، كان لكل منها أربع أيد وأربعة أقدام ، ووجهان ، وعورتان . . . إلخ ، حتى

قرر الإله زيوس يوماً أن يشطر هذه المخلوقات شطرين « كما تشطر اللِّفتة قبل تخليلها » . . . لكنه وقع بعد هذا التقسيم « أن كل شطر من الشطرين كان يشتهى نصفه الآخر ، وكانا إذا ما التقيا التفّت الأذرع منهما حول بعضهما بعضاً وتعانقا عناقاً عنيفاً قوياً كى يستعيدا وحدتهما ، وكان العناق يطول حتى لقد كانا يتركان أنفسهما على هذه الحال حتى يموتا من الجوع والسكون ، لأن كل نصف كان يعاف كل شىء لا يشاركه فيه النصف الآخر »[1] .

فهل لنا أن نتابع اللمحة التى قدمها لنا الشاعر الفيلسوف ، وأن نخاطر بالقول إن المادة الحية ــ التى كانت واحدة غير منقسمة قبل أن تنفخ فيها الحياة ــ قد تقطعت أوصالها باستقبالها هذه النسمات فانقسمت إلى جزيئات

[(١) إنى لمدين للأستاذ هينرخ جومبرتز من فينا بما يأتى خاصاً بأصل الأسطورة التى ذكرها أفلاطون . وهأنا أورد فيما يلى جانباً مما حدثنى به بنصه تقريباً . مما يسترعى النظر أن لب هذه الفكرة كان يوجد فى كتب « الاوبانيشاد » (أحد كتب الهند المقدسة) . إذ أننا نجد العبارات الآتية فى كتاب «بريهادارانيا كا أوبانيشاد» حيث يوصف منشأ العالم من عتمان (الذات أو الأنا) : « لكنه لم يكن يشعر بأى جذل أو سرور . ذلك لأن المرء الوحيد المنعزل لا يداخله أى سرور أو سعادة . فاشتهى أن يكون له ثان ، فقد كان فى الواقع ضخما لأنه كان يجمع فى نفسه بين الرجل وامرأته . فقرر أن يقسم نفسه قسمين ومن هذا خلق الزوج وزوجته . ولهذا قال يا جنا فلقايا : « هذا هو السبب فى أن كلا منا يشبه نصف قوقعة لأن الفراغ الذى يحدث تملؤه الزوجة » .

وكتاب « بريهادارانيا كا أوبانيشاد » هو أقدم الاوبانيشاد كافة ، ولا يرجع تاريخه أى باحث ثقة إلى ما بعد عام ٨٠٠ قبل الميلاد. وإنى ، على النقيض من الرأى الشائع ، أميل إلى القول بأن أفلاطون قد تأثر ، ولو عن طريق غير مباشر ، بتلك الأفكار الهندية ؛ ويؤيدنى فى هذا أنه ليس هناك شك فى تأثره بالهند فيما يختص بفكرة التناسخ . غير أن التسليم بتأثر أفلاطون من هذه الناحية ، خلال الفيثاغوريين ، لا ينفى أن تفكير أفلاطون وتفكير فلاسفة الهند قد تلاقيا ، وأن لهذا اللون من التلاقى مغزاه . ذلك لأن أفلاطون لم يكن ليؤمن بتلك الأسطورة التى وصلت إليه من الشرق ، ناهيك باهتمامه بها ، إلا إذا كانت قد اجتذبته بما لاح فيها من عناصر الحق والصحة .

وفى مقال ينصرف إلى البحث فى أصل تلك الفكرة التى نحن بصددها وفى تطورها التاريخى قبل أفلاطون ، يرد تسيجلر (١٩١٣) أصولها إلى أهل بابل .]

صغيرة تتوق منذ ذلك الحين إلى الاتحاد بعضها مع بعض بدافع الغرائز الجنسية ؟ وإن هذه الغرائز ، التي بقي خلالها التجاذب الكيماوي للمادة الجامدة ، نجحت شيئاً فشيئاً أثناء تطورها في عالم الخلايا الحية في التغلب على العقبات التي كانت تعوق سبيلها في البيئة المفعمة بألوان المثيرات الخطيرة — هذه المثيرات التي أرغمت تلك الخلايا على أن تكون لنفسها لحاء خارجياً واقياً ؟ وإن هذه الجزيئات المنفصلة من المادة الحية وصلت ، عن هذا السبيل ، إلى التجمع في كائنات كثيرة الخلايا ، وانتهى بها الأمر أخيراً إلى نقل غريزة العودة إلى الاتحاد ، في أعلى أشكالها وأكثرها تركيزاً ، إلى الخلايا التناسلية ؟ — لكنا إذا ما وصلنا إلى هذا ، فقد حان الوقت عندي ، للاكتفاء بهذه الأسئلة وللوقوف عند هذا الحد .

غير أني رغم هذا أود أن أضيف بضع كلمات على سبيل النقد والتعقيب . فلقد يسأل سائل إلى أي حد وصل اقتناعي أنا بصحة الفروض التي ذهبت إليها في الصفحات السالفة . وعن هذا أجيب بأني أنا نفسي غير مقتنع ، وأني لا أعمل على إغراء غيري من الناس بالإيمان بتلك النظريات . أو ، بعبارة أدق ، إني لا أدري إلى أي حد يبلغ يقيني منها . ويخيل إلي أنه ليس هناك من سبب لتدخل العامل الوجداني في هذه المسألة على الإطلاق . إذ من الممكن طبعاً أن يندفع المرء وراء لون من ألوان التفكير والتأمل ، وأن يداوم متابعته حيثما يؤدي به بدافع التطلع العلمي الخالص ؛ أو ، إن أراد القارئ وآثر ذلك ، قلنـــا له إننا في هذا كمن ينقل الكفر ، و« ناقل الكفر ليس بكافر » . ولست أنكر أن الخطوة الثالثة في نظرية الغرائز ، هذه الخطوة التي ذهبت إليها في هذا الكتاب ، لا يمكن أن تزعم لنفسها من الصحة واليقين ما لسابقتيها — وهما توسعة معنى الجنس ، وتقرير وجود النرجسية . ذلك لأن

هاتين النظريتين كانتا ترجمة مباشرة من عالم المشاهد إلى عالم النظر ونقلا مضبوطاً من الملاحظ إلى المعقول ؛ ولم يكن فيهما من احتمالات الخطأ إلا ما لا يمكن تجنبه فى مثل هذه الأحوال .

والحق أن أقوالى عن صفة الغرائز الارتدادية أيضاً تقوم على الوقائع الملموسة المشاهدة — أى على ما لمسناه من إجبار التكرار — ورغم هذا فربما نكون قد أسرفنا فى تقدير ما لهذا الظاهرات من دلالة . وعلى أية حال فإنه من الصعب أن نتابع فكرة من هذا النوع إلا إذا عاودنا ربط المشاهدات الواقعية بألوان النظر المجردة ، وإذا نحن على هذا النحو قد بعدنا كثيراً عن الملاحظة المباشرة . وكلما كثر هذا أثناء صياغة إحدى النظريات وتكوينها كانت النتيجة النهائية كما نعرف متهافتة لا يطمئن إليها العقل . غير أن مقدار الخطر هنا لا يمكن التحقق منه ، فقد يواتى صاحبها حسن الطالع فيقع على الحق أو هو قد يغرق فى الخطأ إغراقاً معيباً . ولست أعلق أهمية كبيرة، فى مثل المهمة التى نحن بصددها ، على الدور الذى يقوم به ما يسمى « بالحدس » أو « بالبصيرة » ؛ لأن ما وقعت عليه منه يبدو لى على الأرجح نتيجة لنوع من أنواع الحياد العقلى. غير أن الناس للأسف نادراً ما يلتزمون الحياد فيما يتصل بجلائل الأمور وفيما يدور حول المشكلات الكبرى فى العلم والحياة . إذ تتحكم فى كل منا فى هذه الأحوال أفكار سابقة وأهواء عميقة متغلغلة الجذور تعبث بتفكيره دون فطنة منه . فإذا كان لدينا تلك المبررات القوية لما يراودنا من الريبة والشك ، وجب أن نتخذ نحو نتائج تلك التأملات موقف الرفق والإنصاف . على أنى أسارع فأضيف إلى هذا أن نقد المرء لنفسه، على هذا المنوال ، يحتم عليه أن يغرق فى التسامح بإزاء الآراء المخالفة ، إذ يحق للمرء كل الحق أن ينبذ، دون أسف، تلك النظريات التى تنفيها بسائط الوقائع المشاهدة ، وهو فى نفس

الوقت يدرك أن صحة نظريته ليست أمراً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولا ينبغي أن نشفق كثيراً عند الحكم على ما ذهبنا إليه فيما يتعلق بغرائز الحياة والموت لأنها تنطوى على كثير من العمليات الخفية المحيرة — كأن تطرد غريزة غريزة أخرى ، أو كأن تتحول غريزة من الأنا إلى أحد الموضوعات ، وما إلى ذلك . إذ لا يعود ذلك إلا إلى ما نحن ملزمون به من استخدام المصطلحات العلمية ، أى استخدام اللغة التشبيهية الخاصة بعلم النفس (أو بعبارة ، أدق ، الخاصة بعلم نفس الأعماق) ، لأنا دون ذلك لم نكن لنستطيع أن نصف العمليات التى نحن بصددها على الإطلاق ، بل لم نكن لنستطيع أن نفطن إليها . وقد تتلاشى النقائص التى تشوب ما قدمناه من عرض لو أنه كان قد أتيح لنا أن نستبدل بالعبارات السيكلوجية عبارات فسيولوجية أو كيماوية . ورغم أن هذه العبارات هى الأخرى ليست إلا جانباً من لغة التشبيه غير أنها لغة طالما ألفناها ، ولعلها تفضل تلك فى البساطة والوضوح .

وينبغى من الناحية الأخرى أن نقرر فى جلاء ووضوح أن عدم التأكد من النظرية التى دعونا إليها قد ازداد زيادة كبيرة ، لأنه كان لابد لنا أن نستعير كثيراً من علم الأحياء . فالحق أن علم الأحياء ميدان ملىء بالإمكانيات وهو علم خليق بنا أن ننتظر منه أن يهدينا إلى ما سوف يثير كثير من الدهشة والعجب ، بل إنا لنعجز عن تصور ما سوف يدلى به إلينا — بعد بضع عشرات من السنين — من إجابات عن المسائل التى أسلفنا الإشارة إليها . وقد تكون هذه الإجابات من نوع يهدم كل ماذهبنا إليه من فروض ، ورب قائل يقول : إذا كان الأمر كذلك فلم تابعت مثل هذا اللون من التفكير ، بل لم قررت أن تنشره على الناس ؟ الحق أنى لا أستطيع أن أنكر أن بعض

ما عثرت عليه من صور التشابه والارتباط والصلات يلوح لى خليقاً بالنظر وإعمال النفس[1]

[(١) أود أن أضيف كلمة قصيرة لإيضاح الاصطلاحات التى نستخدمها ، ذلك لأنها قد تطورت نوعاً ما نتيجة للاعتبارات التى ذكرتها آنفاً . فقد استطعنا أن نعرف ماهية الغرائز الجنسية من صلاتها الجنسية وعلاقتها بوظيفة التناسل . واستمسكنا بهذا الاسم بعد أن ألزمتنا كشوف التحليل النفسى أن ننقص من الربط بينها وبين التناسل ربطاً شديداً . حتى إذا ما انتهينا إلى الليبدو النرجسى وإلى توسعة فكرة الليبدو حتى شملت الخلايا المفردة انتقلنا من الغريزة الجنسية إلى الحب ، الذى يعمل على أن يضم ويمسك أجزاء المادة الحقة بعضهـا إلى بعض أما ما يفهمه العامة من الغرائز الجنسية فإنما هو فى رأينا جانب من الحب الذى يتجه نحو الموضوعات الخارجية ، وقد وصلنا من تأملاتنا إلى أن الحب كان يفعل فعله منذ بدء الحيـاة وإلى أنه يبدو كغريزة للحياة مقابل غريزة الموت التى نشأت منذ أن نفخت الحيـاة فى المادة الجامدة . وقد كنا نلتمس من هذه التأملات حـلا لألغاز الحياة فذهبنا إلى أن هاتين الغريزتين كانتا تصطرعان منذ بدء الخليقة . غير أنه قد لا يكون من اليسير أن نتابع التحولات التى مرت بهـا فكرتنا عن غرائز الأنا . فقد أطلقنا هذا الاسم فى أول الأمر على كافة النزعات الغريزية التى أمكن التفرقة بينها وبين الغرائز الجنسية التى تنصرف نحو موضوع خارجى ؛ وهكذا عقدنا مقابلة بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية التى تظهر على شكل لبيدو . ثم أتيح لنا بعد ذلك أن نتعمق فى تحليل الأنا فوقفنا على أن جانباً من غرائز الأنا له هو الآخر صبغة شهوية وأنه قد اتخذ ذات الشخص موضوعاً له . ومنذ ذلك الحين صرنا نضع الغرائز النرجسية ، التى تعمـل فى سبيل المحافظة على الذات ، ضمن الغرائز الجنسية الشهوية . ومن ثم تحولت المقابلة بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية إلى مقابلة بين غرائز الأنا وغرائز الموضوع وكلاهما ذو طبيعة شهوية . على أنه قد قامت محل هذه مقابلة جديدة بين الغرائز الشهوية (غرائز الأنا والموضوع) وبين غيرها من الغرائز التى لا بد من القـول بوجودها فى أنا والتى يمكن فى الواقع أن نعثر عليها فى ثنايا الغرائز الهدامة . حتى أدت بنا التأملات آخر الأمر إلى تحويل هـذه المقابلة إلى مقابلة بين غرائز الحياة (الحب) وبين غرائز الموت .

الفصل السابع

إذا كانت الغرائز حقاً تسعى أبداً إلى إعادة الأمور إلى ما كانت عليه ، لم يكن هناك ما يدعو إلى العجب من أن ثمة كثيراً من العمليات التى تجرى فى الحياة النفسية تجرى مستقلة عن مبدأ اللذة . وهذه خاصة تتقاسمها كافة الغرائز الفرعية فتهدف إلى العودة مرة أخرى إلى مراحل خاصة من مرحلة التطور السابق . وهذه كلها أمور لا حكم لمبدأ اللذة عليها ؛ غير أنه لا يتأتى من هذا أن واحدة من تلك الغرائز تعارض بالضرورة مبدأ اللذة ، ومن ثم كان علينا أن نلتمس حلا لمشكلة العلاقة بين عمليات التكرار الغريزية وبين سيطرة مبدأ اللذة .

لقد وجدنا أن إحدى وظائف الجهاز النفسى المبكرة وأكثرها أهمية هى « تقييد » الدوافع التى تنشب فيه ، وأن تستبدل بالعملية الأولية التى تسود تلك الدوافع العملية الثانوية ، وأن تحول الشحنة الطليقة إلى شحنة كامنة . فإذا ما كانت النفس بصدد هذا التحويل لم تحفل بما قد يطرأ من عدم اللذة ؛ غير أن هذا لا يتضمن وقف العمل بمبدأ اللذة . بل الأمر على النقيض من ذلك ، لأن التحول يتم خدمة لمبدأ اللذة ؛ ذلك لأن التقييد عمل مبدئى يمهد السبيل لسيطرة مبدأ اللذة وتوكيدها .

دعنا نلتمس تفرقة أدق مما وصلنا إليه حتى الآن بين الوظيفة والنزعة . فمبدأ اللذة ، إذاً ، هو نزعة تعمل فى خدمة وظيفة وهذه الوظيفة تهدف إلى تحرير الجهاز

النفسى تحريراً تاماً من الاستثارة أو إلى الإبقاء على مقدار الاستثارة ثابتاً أو الاحتفاظ به فى أقل مستوى ممكن . وليس لدينا حتى الآن ما يخولنا أن نحسم الأمر فنفاضل بين أى من هذه الاحتمالات ؛ غير أنه من الواضح أن الوظيفة التى وصفناها على هذا النحو تعمل فى سبيل القيام بأشمل نزعة لكل مادة حية — ألا وهى العودة إلى سكون عالم الجماد . ولقد عرفنا جميعاً كيف أن أقصى ألوان اللذه التى يمكن أن نصل إليها ، وهى لذة العملية الجنسية ، يصطحب بانطفاء مفاجئ لأشد أنواع الاستثارة حدة . فكأن تقييد الدافع الغريزى يكون وظيفة مبدئية تعمل على إعداد الاستثارة لنبذها نهائياً فى لذة التخلص .

وهنا محل للتساؤل عما إذا كانت مشاعر اللذة وعدم اللذة يمكن أن تصدر عن عملية الاستثارة المقيدة والحرة على السواء ؛ فيبدو أنه ليس من شك على الإطلاق فى أن العمليات الطليقة أو الأولية تؤدى إلى ألوان من المشاعر أكثر حدة من كلا الناحيتين (اللذة وعدم اللذة) عما تؤدى إليه العمليات المقيدة أو الثانوية ، أضف إلى هذا أن العمليات الأولية هى السابقة فى الزمن ؛ ففى مبدأ الحياة النفسية لا يوجد سواها شىء ، ومن هذا يمكن أن نستنتج أن مبدأ اللذة إذا لم يكن مسيطراً عليها لم يمكن ألبتة أن يفعل فعله فيما يليها من العمليات . وهكذا نصل إلى نتيجة ليست فى صميمها من البساطة فى شىء ، ألا وهى أنه فى بدء الحياة النفسية كان الكفاح فى سبيل اللذة أعنف بكثير مما أصبح عليه فيما بعد ، لكنه لم يكن مطلقاً كما هو الآن : إذ كان يخضع لكثير من ألوان التوقف وصنوف العقبات . وأصبحت سيادة مبدأ اللذة فيما تلا ذلك من عصور أكثر رسوخاً واستقراراً ، غير أن هذه السيادة نفسها لم تفلت من عملية الاستئناس والترويض أكثر مما

أفلت غيرها من الغرائز بصفة عامة . وعلى أية حال ، فمهما يكن ما يؤدى إلى ظهور مشاعر اللذة وعدم اللذة فى عمليات الاستثارة ، فإنه ينبغى أن يكون موجوداً فى العملية الثانوية مثل وجوده فى العملية الأولية . وهنا نقطة للبدء فى استقصاء جديد . ذلك لأن الشعور ينقل إلينا مشاعر من الداخل لا تقتصر على اللذة أو عدم اللذة ، بل تحتوى أيضاً على لون خاص من التوتر يتصف بدوره باللذة أو عدم اللذة . أترى نستطيع من الفرق بين هذه المشاعر أن نميز بين عمليات الطاقة المقيدة والطليقة ؟ أم أنه يمكن أن نربط بين الشعور بالتوتر وبين الحد الأعلى ، أو ربما مستوى الشحنة ، على حين أن درجات اللذة وعدم اللذة تشير إلى تغير فى مقدار الشحنة فى خلال وقت معين ؟ ومن الحقائق الأخرى التى تسترعى النظر أن لغرائز الحياة كثيراً من الأواصر بإدراكنا الداخلى ، تعمل على تكدير صفو الحال وتؤدى أبداً إلى أنواع من التوتر نشعر باللذة عند التخلص منها ، بينما تبدو غرائز الموت كأنها تعمل دون أن يعترض سبيلها شىء ؛ حتى ليلوح أن مبدأ اللذة فى الواقع يعمل فى خدمة غرائز الموت . فالحق أنه يقوم بمراقبة المثيرات التى تفد من العالم الخارجى ، تلك المثيرات التى تعتبر خطراً على كلٍ من نوعى الغرائز ؛ على أنه يقوم بصفة خاصة بمراقبة أية زيادة فى الاستثارة مَن الداخل ، لأنها تؤدى إلى زيادة مهمة الحياة عسراً وصعوبة . ويؤدى هذا بدوره إلى إثارة كثير من ألوان التساؤل لسنا اليوم على قدر من المعرفة تتيح لنا الإجابة عنها . بل ينبغى أن نعتصم بالصبر ، وأن ننتظر الوصول إلى طرائق وظروف جديدة للبحث . كما ينبغى أيضاً أن نكون على أهبة للتخلى عن السبيل الذى سلكناه وقتاً ما ، إذا لاح لنا أنه لا يؤدى بنا إلى الغاية المرجوة . ولن يلقى باللوم والتثريب على باحث قد تطورت آراؤه ، بل تغيرت ، إلا من يعتقدون أن العلم

ينبغى أن يحل محل ما كانوا يؤمنون به ، وأن يسد فى نفوسهم فراغ العقيدة التى تخلوا عنها — ويمكن إلى جانب هذا أن نلتمس العزاء فى بطء التقدم الذى وصلت إليه معارفنا العلمية من قول الشاعر :

تعارجتُ لا رغبة فى العـــرجْ ولـــكن لأطرق با الفرجْ
وألقى حبلى على غـــاربى وأسلك مسلك من قد مـــرج
فإن لامنى القوم قلت اعذروا فليس على أعرج من حرج[1]

---

(١) ختم فرويد كتابه بترجمة هذه الأبيات من المقامة الثالثة من مقامات الحريرى التى نقلها المستشرق روكرت إلى الألمانية .

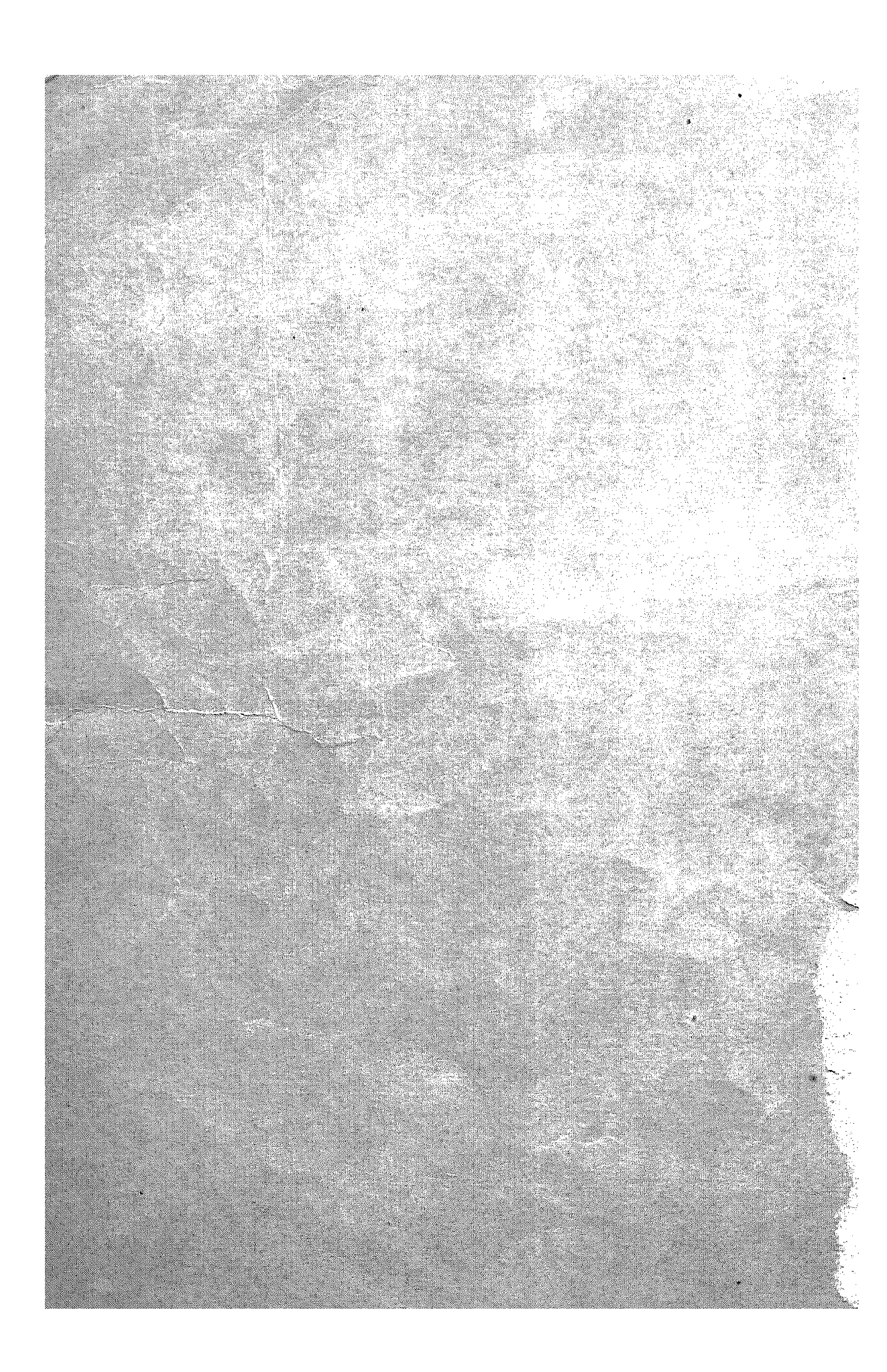
فهرس

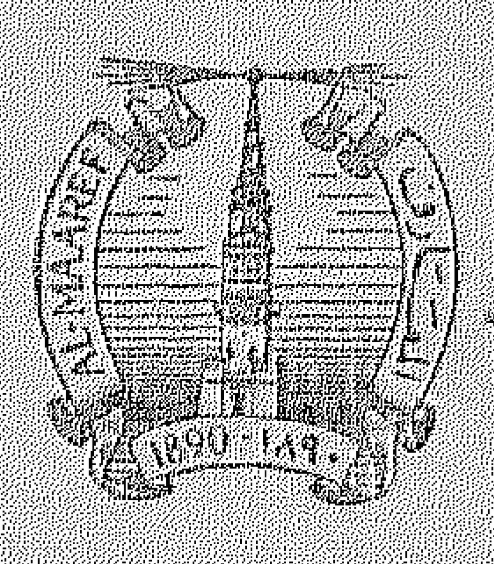
غ

ل

م

ن




AL-MAAREF
1890